الباب الخامس

في ذكر التشايخ والإرادة

وبعض ما سمعناه منه في هذا الباب ﷺ

ـ **سأله** ﷺ بعض الفقهاء عما قيل: إن التربية انقطعت، فهل هذا صحيح أم لا؟

ونص السؤال: سيدنا الإمام، من فتح الله عليه فتوحات أوليائه الكرام، وتفضل عليه بالانتساب لبيت النبوة على الموصوف بها أفضل الصلاة وأزكى السلام؟ علمنا ـ علمك الله ـ من علومه اللدنية ما يزيح الإشكال عن قلوب الرجال، ويسرح عقولها من العقال إلى نيل العلوم الروحانية ببيان العبارة وضرب الأمثال.

فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**الْـخَلْقُ عِيَالُ الله وَأَحَبُّ الْـخَلْقِ إِلَى الله أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»(١).

فمنها سيدي ما نقل عن الشيخ زروق ﷺ: «**انقطعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال، فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان**» هل ذلك خاص بزمانه، أو هي منقطعة إلى نزول سيدنا عيسى عليه السلام؟.

فإن قلتم: انقطع، فما سبب قطعه؟ وإن قلتم: هو باقٍ، فمَن الشيخ الذي تعطى له روح المريد يتصرف فيها بالخلوة وكيف يشاء؟ عيِّنْه لنا في أي إقليم وبلاد ممن نجح على يده أحد من العباد. انتهى.

وهذا الفقيه الذي سبقت الإشارة إليه في تفسير «ق» وفي شرح حديث الكتابين اللذين فيهما أسماء [أهل] الجنة و[أسماء أهل] النار.

فأجاب ﷺ بأن المقصود من التربية هو تصفية الذات وتطهيرها من رعوناتها، حتى تطيق حمل السر، وليس ذلك إلا بإزالة الظلام منها وقطع علائق الباطل عن وجهتها، ثم قطع الباطل عنها تارة يكون بصفائها في أصل خلقتها، بأن يطهرها الله بلا واسطة، وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة الذين هم خير القرون، فقد كان الناس في تلك القرون

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٦٥، رقم ٣٣١٥)، قال الهيثمي (٨/ ١٩١): رواه أبو يعلى والبزار، وفيه يوسف ابن عطية الصفار، وهو متروك. وأخرجه أيضًا: البيهقي شعب الإيمان (٦/ ٤٣، رقم ٧٤٤٥).

متعلقين بالحق باحثين عليه، إذا ناموا ناموا عليه، وإذا استيقظوا استيقظوا عليه، وإذا تحركوا تحركوا فيه، حتى إن من فتح الله بصيرته ونظر إلى بواطنهم وجد عقولهم ـ إلا النادر ـ متعلقة بالله وبرسوله، باحثة عن الوصول إلى مرضاتهما.

فلهذا كثر فيهم الخير، وسطع في ذواتهم نور الحق، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد ما لا يكيف ولا يطاق، فكانت التربية في هذه القرون غير محتاج إليها، وإنما يلقى الشيخ مريده وصاحب سره ووارث نوره فيكلمه في أذنه، فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك؛ لطهارة الذوات، وصفاء العقول، وتشوفها إلى نهج الرشاد.

وتارة يكون بتسبب من الشيخ فيه ـ أعني: قطع الظلام من الذوات ـ وذلك فيما بعد القرون الفاضلة حيث فسدت النيات، وكسدت الطويات، وصارت العقول متعلقة بالدنيا، باحثة عن الوصول إلى نيل الشهوات، واستيفاء اللذات، فصار الشيخ صاحب البصيرة يلقى مريده [وصاحب سره] ووارثه، فيعرفه وينظر إليه فيجد عقله متعلقًا بالباطل ونيل الشهوات، ويجد ذاته تتبع العقل في ذلك، فتلهو مع اللاهين، وتسهو مع الساهين، وتميل مع المبطلين، وتتحرك الجوارح في ذلك حركة غير محمودة، من حيث إن العقل الذي هو مالكها مربوط بالباطل لا بالحق، فإذا وجده على هذه الحالة أمره بالخلوة، وبالذكر، وبتقليل الأكل.

ـ فبالخلوة ينقطع عن المبطلين الذين هم في عداد الموتى.

ـ وبالذكر يزول كلام الباطل واللهو واللغو الذي كان في لسانه.

ـ وبتقليل الأكل يقل البخار الذي في الدم، فتقل الشهوة، فيرجع العقل إلى التعلق بالله وبرسوله.

فإذا بلغ المريد إلى هذه الطهارة والصفاء أطاقت ذاته حمل السر، فهذا هو غرض الشيوخ من التربية وإدخال الخلوة، ثم بقي الأمر على هذا مدة إلى أن اختلط الحق بالباطل، والنور بالظلام، فصار أهل الباطل يربون من يأتيهم بإدخال الخلوة، وتلقين الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق، وقد يضيفون إلى ذلك عزائم واستخدامات تفضي بهذا إلى مكر من الله تعالى واستدراجات.

وكثر هذا الأمر في الأعصار التي أدركها الشيخ زروق ﷺ وأدركها شيوخه، فظهر لهم من النصيحة لله ولرسوله أن يشيروا على الناس بالرجوع عن هذه التربية التي كثر فيها المبطلون، وأن يقفوا بالناس في ساحة الأمن التي لا خوف فيها ولا حزن، وهي اتباع السنة والكتاب اللذين لا يضل من اهتدى بهما.

فكلامهم ﷺ خرج مخرج النصيحة والاحتياط، ولم يريدوا ﷺ الانقطاع رأسًا للتربية الحقيقية، وحاشاهم من ذلك فإن نور النبي ﷺ باقٍ، وخيره شامل، وبركته عامة إلى يوم القيامة.

وأمّا قولكم: «فمن الشيخ ... إلخ».

فجوابكم:

إن الشيخ الذي يلقى إليه بالقياد هو العارف بأحوال النبي ﷺ الذي سقيت ذاته من نوره ﷺ حتى صار على قدم النبي ﷺ وأمده الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان، فهذا هو الذي يلقى إليه بالقياد، وتنبغي محبته وتنفع خلطته، فإنه يجمع العبد مع ربه، ويقطع عنه الوساوس في معرفته، ويرقيه في محبة النبي ﷺ.

وأمّا قولكم: «فعينوه لنا في أي إقليم أو بلد».

فجوابه:

إن الموصوف المذكور متعدد ـ والحمد لله ـ في البلاد والعباد، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة، واطلبه تجده، فـ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل:١٢٨].

ـ **وسأله** الفقيه المذكور أيضًا عن الشيخ الذي يدعي رؤية النبي ﷺ بما نصه:

ومنها؛ أي: من الأسئلة: سيدي، من ادعى أنه يرى النبي ﷺ يقظة، قال العارفون بالله: لا تقبل دعواه إلا ببينة، وهو أن يقطع ثلاثة آلاف مقام إلا مقامًا. ويكلف المدعي بعدها ببيانها، فالمطلوب من سيادتكم ـ أدامها الله ـ أن تعدوها لنا ولو برمز واختصار، أو ما تيسر منها من غير استكثار.

فأجاب ﷺ بأن في باطن كل ذات ثلاثمائة وستة وستين عرقًا، كل عرق حامل للخاصية التي خلق لها، والعارف ذو البصيرة يشاهد تلك العروق مضيئة شاعلة في معاني خواصها، فللكذب عرق مشعول بخاصيته، وللحسد عرق يضيء به، وللرياء عرق يضيء به، وللغدر عرق يضيء به، وللعجب عرق يضيء به، وللكبر عرق يضيء به، وهكذا حتى تأتي على سائر العروق.

حتى إن العارف إذا نظر إلى الذوات رأى كل ذات بمنزلة فنار علقت فيه ثلاثمائة وست وستون شمعة، كل شمعة على لون لا يشابه لون غيرها، ثم هذه الخواص في كل واحدة منها تفاصيل وأقسام، فخاصية الشهوة مثلاً لها أقسام بحسب ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى الفروج كانت قسمًا، وإن أضيفت إلى الجاه كانت قسمًا، وإلى المال كانت قسمًا، وإلى طول الأمل كانت قسمًا، وهكذا خاصية الكذب، فمن حيث إن صاحبها لا يقول الحق تعد قسمًا، ومن حيث إن صاحبها يظن في غيره أنه لا يقول الحق ويشك في كلامه ولا يصدقه تعد قسمًا.

ولا يفتح على العبد حتى يقطع هذه المقامات بأسرها، فإذا أراد الله بعبده خيرًا وأهّله للفتح فإنه يقطعها عنه شيئًا فشيئًا على التدريج، فإذا قطع عنه مثلاً خاصية الكذب حصل على مقام الصدق، ثم على مقام التصديق، وإذا قطع عنه خاصية الشهوة في المال حصل على مقام الزهد، أو شهوة المعاصي حصل على مقام التوبة، أو شهوة طول الأمل حصل على مقام التجافي عن دار الغرور وهكذا، ثم إذا فتح عليه وجعل السر في ذاته تدرج في مقامات المشاهدة للعوالم فأول ما يشاهد الأجرام الترابية، ثم الأجرام العلوية، ثم الأجرام النورانية، ثم يشاهد سريان أفعاله تعالى في خليقته.

وله في مشاهدة الأجرام الترابية تدريج، فأول ما يشاهد الأرض التي هو فيها، ثم يشاهد البحور التي هو فيها، ثم يشاهد ما بين الأرض التي هو فيها والأرض الثانية بأن يخرق نظره التخوم إلى الثانية، ثم يشاهد الأرض الثانية، ثم تخومها إلى الثالثة، وهكذا إلى السابعة، ثم يشاهد الجو الذي بينه وبين السماء الأولى، ثم السماء الأولى، وهكذا على نحو الترتيب السابق في الأرض، ثم يشاهد البرزخ والأرواح التي فيه، ثم الملائكة والحفظة وأمور الآخرة.

وعلى العبد في كل مشاهدة من هذه المشاهدات حق من حقوق الربوبية، وأدب من آداب العبودية، ويعرض له في ذلك قواطع، وتعتريه عوائق، ويشاهد أمورًا هائلة قتالة، فلولا توفيق الله تعالى وفضله على العبد الضعيف ورحمته به لكان أقل درجاتها يرجع بسببها من جملة الحمقى.

ثم قطعه لمقامات المشاهدة وأهوالها أصعب عليه من قطعه مقامات خواص النفوس؛ لأن قطعه لمقامات الخواص باطني لا يشعر به إلا بعد الفتح، وقطعه لمقامات المشاهدة ظاهري يعاينه ويراه؛ لأنه أمر يخوضه بعد الفتح، فإذا صفا نظره، وتم نور بصيرته، ورحمه الله الرحمة التي لا شقاء بعدها، رزقه الله ﷻ رؤية سيد الأولين والآخرين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فيراه عيانًا، ويشاهده يقظة، ويمده الله تعالى بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فحينئذ يحصل على مقام الهناء والسرور، فهنيئًا له السعادة.

فإذا اعتبرت العدد السابق في الخواص، والأقسام الداخلة فيها مع المقامات التي توجد من المشاهدات السابقة، وجدت ذلك ينوف على العدد المذكور، ثم إن النبي ﷺ لا تخفى شمائله المطهرة على أمته، فقد دونت العلماء ﷺ ما خصه الله ـ تبارك وتعالى ـ في ظاهر ذاته وفي باطنه، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فمن ادعى رؤيته يقظة فليسأل عن شيء من أحواله الزكية ويسمع جوابه، فإنه لا يخفى من يجيب عن عيان ولا يلتبس بغيره أبدًا، والسلام.

فإن قنعتم بهذا فبها ونعمت، وإن أردتم كلامًا آخر فاعلم أن العبد إذا فتح الله تعالى عليه أمده بنور من أنوار الحق يدخل على ذاته من جميع الجهات، ويخرقها حتى يخرق اللحم والعظم، ويعاني من برودته ومشقة دخوله على الذات ما يقارب سكرات الموت، ثم إن ذلك النور من شأنه أن يمده بأسرار المخلوقات التي أراد الله أن يفتح على ذلك العبد في مشاهدتها، فيدخل النور على ذاته متلونًا بألوان المخلوقات المذكورة.

فإذا أراد الله تعالى أن يفتح عليه مثلاً في مشاهدة المخلوقات التي على ظهر هذه الأرض، فإن ذلك النور يأتيه مرة ويخرقه بالأسرار التي تكونت بها ذوات بني آدم، ويأتيه مرة بالأسرار التي تكونت بها البهائم، ويأتيه مرة بالأسرار التي تكونت بها الجمادات من

فواكه وثمار ونحوها، بحيث إنه لا يفتح عليه في مشاهدة شيء منها حتى يسقى أولاً بأسرارها، ومع ذلك فإنه يعاني في كل كرة ما يعانيه في أول مرة.

ومن جملة المخلوقات: سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ فإذا وعد الله عبدًا بالفتح عليه في مشاهدة ذاته الشريفة فإنه لا يشاهده حتى يسقى بالأسرار التي في ذاته الشريفة، فلنفرض الذات قبل الفتح بمثابة شيء مظلم، والذات الشريفة بمنزلة نور ذي شعب متنوعة تنتهي إلى مائة ألف أو أكثر، فإذا أراد الله رحمة تلك الذات المظلمة فإن ذلك النور الذي يمدها ويسقيها يأتيها مرة و[يخرقها][1] بتلك الشعب واحدة بعد واحدة، ولنفرضها مثلاً شعبة الصبر فيزول بها سواد ضده من الجزع والقلق، ويأتيه مرة بشعبة أخرى، ولنفرضها شعبة الرحمة فيزول بها سواد ضده الذي هو عدم الرحمة، ويأتيه مرة بشعبة أخرى، ولنفرضها شعبة الحلم فيزول بها سواد ضده، وهكذا حتى تأتي على جميع الشعب التي في الذات المطهرة المنورة، وتزول عن الذات المظلمة جميع الأوصاف السوداوية.

وعند ذلك يتمكن العبد من المشاهدة في الذات الشريفة؛ لأنه متى بقي عليه شيء من السواد كان ذلك السواد في ذاته، ولا يطيق مشاهدة الذات الشريفة حتى يخرج السواد بأسره من ذاته.

ولسنا نريد أنه إذا سقي بالأسرار التي في الذات الشريفة أنه تكون فيه على الكمال التي هي عليه في الذات الشريفة، بل نريد أنه يسقى بها على ما تطيقه ذاته وأصل خلقته، ولسنا نريد أيضًا أنه إذا سقي بشيء من تلك الشعب أنه ينقص من الذات الشريفة ويبقى محله خاليًا منه، فإن الأنوار لا تزول عن محلها بالأخذ منها، فظهر لك بهذا أن العبد لا يشاهد النبي ﷺ حتى تمحى جميع أوصافه بورود تلك الأسرار الشريفة والأنوار اللطيفة، وفي ذلك قطع لمقامات لا تعد ولا تحصى:

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

وكأن من حصرها في ألفين أو أكثر أخبر عن حالته وما وقع له من الفتح وبقي عليه ما بقي، وما سبق من نفي المشاهدة عن الذي لا يسقى بجميعها، فإنما نعني به نفي

---

(١) في (ب): ويسقيها.

المشاهدة على الكمال، فإن من بقيت عليه شعب وحصلت له مشاهدة حصلت له لا على الكمال، والله أعلم.

ـ **وسأله** الفقيه المذكور عن المريد الذي يزيد إذا حضر الشيخ، وينقص إذا غاب بما نصه:

ومنها؛ أي: من الأسئلة: سيدي، إذا صحب المريد شيخًا كاملاً عارفًا بربه، وادعى أنه يربيه بهمته، ثم إذا غابت بشرية الشيخ بموت أو سفر يجد المريد ضعفًا من نفسه في الحال والعلم والعمل، فما معنى تربيته له بالحال والهمة وانتفاعه به، مع ضعف انتفاعه به إذا بعد عنه؟

فأجاب ﷺ بأن همة الشيخ الكامل هي نور إيمانه بالله ﷻ وبه يربي المريد ويرقيه من حالة إلى حالة، فإن كانت محبة المريد للشيخ من نور إيمانه أمده الشيخ حضر أو غاب، بل ولو مات ومرت عليه آلاف من السنين، ومن هنا كان أولياء كل قرن يستمدون من نور إيمان النبي ﷺ ويربيهم ويرقيهم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ لأن محبتهم فيه محبة صافية خالصة من نور إيمانهم، وإن كانت محبة المريد في الشيخ من ذات المريد لا من إيمانه انتفع به ما دام حاضرًا، فإذا غابت الذات عن الذات وقع الانقطاع.

وعلامة محبة الذات: أن تكون محبته في الشيخ لتحصيل نفع، أو لدفع ضر دنيوي أو أخروي.

وعلامة محبة الإيمان: أن تكون خالصة لوجه الله لا لغرض من الأغراض، فالمريد إذا وجد النقص من نفسه عند غيبة الشيخ فالتقصير منه لا من الشيخ، والله أعلم.

ـ **وسأله** الفقيه المذكور أيضًا عن طريق الشكر وطريق المجاهدة: **أيهما أولى؟** بما نصه:

ومنها: سيدي ـ رضي الله عنكم وأرضاكم ـ ما الفرق بين طريقة الولي العارف الشاذلي وأتباعه، وطريقة الغزالي، رضي الله تعالى عنه وأتباعه؟ حتى إن الأولى مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة، والأخرى مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرها، فهل هما سيدي متوافقان على الرياضة، وإنما يأمر الشاذلي

بالشكر بعد القرب للوصول أو عنده، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية؟ وهل الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد، أو لا يمكن أن ينتفع بإحداهما إلا بالإعراض عن الأخرى؟ جوابًا شافيًا.

فأجاب ﷺ بأن طريقة الشكر هي الأصلية، وهي التي كانت عليها قلوب الأنبياء والأصفياء من الصحابة وغيرهم، وهي عبادته تعالى على إخلاص العبودية، والبراءة من جميع الحظوظ، مع الاعتراف بالعجز والتقصير، وعدم توفية الربوبية حقها، وسكون ذلك في القلب على ممر الساعات والأزمان، فلما علم [منهم] ـ تبارك وتعالى ـ الصدق في ذلك أثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح في معرفته ونيل أسرار الإيمان به ﷻ فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو مطلوبهم ومرغوبهم، فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والسهر ودوام الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا.

فالهجرة في طريقة الشكر كانت من أول الأمر إلى الله وإلى رسوله لا إلى الفتح ونيل الكشوفات، والهجرة في طريقة الرياضة كانت للفتح ونيل المراتب، والسير في الأولى سير القلوب، وفي الثانية سير الأبدان، والفتح في الأولى هجومي لم يحصل من العبد تشوف إليه، فبينما العبد في مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب إذ جاءه الفتح المبين، والطريقتان على صواب، لكن طريقة الشكر أصوب وأخلص، والطريقتان متفقتان على الرياضة، لكنها في الأولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق ﷻ وإلزامها العكوف على بابه، واللجأ إلى الله في الحركات والسكنات، والتباعد عن الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور.

وبالجملة: فالرياضة فيها تعليق القلب بالله ﷻ والدوام على ذلك، وإن كان الظاهر غير متلبس بكبير عبادة، ولذا كان صاحبها يصوم ويفطر، ويقوم وينام، و[يقارب][1] النساء، ويأتي بسائر وظائف الشرع التي تضاد رياضة الأبدان.

وقال مرة أخرى بعد قوله: «والهجرة في طريقة الرياضة كانت للفتح ونيل المراتب»:

ثم بعد الفتح منهم من يبقى على نيته الأولى فينقطع قلبه مع الأمور التي يشاهدها في العوالم، ويفرح بما يرى من الكشف والمشي على الماء وطي الخطوة، ويرى أن ذلك هو

---

(١) في (ب): يقارف.

الغاية، وهذا من الذين خلت قلوبهم من الله ﷻ في بداية الأمر ونهايته، فهو من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

ومنهم من تتبدل نيته بعد الفتح ويرحمه الله تعالى ويأخذ بيده، فيتعلق قلبه بالحق ﷻ ويعرض عن غيره، وهذه الحالة التي حصلت لهذا [العبد][1] بعد الفتح هي كانت البداية في طريق الشكر، فيا بُعد ما بين الطريقين وتباين ما بين المطلبين.

وبالجملة: فالسير في الأولى سير القلوب وفي الثانية سير الأبدان، والنية في الأولى خالصة وفي الثانية مشوبة، والفتح في الأولى هجومي لا تشوف من العبد إليه فكان ربانيًّا وفي الثانية نيل بحيلة وسبب، فانقسم إلى الوجهين السابقين، والفتح في الأولى لا يناله إلا المؤمن العارف الحبيب القريب بخلاف الفتح في الثانية فإنك قد سمعت أن للرهبان وأحبار اليهود رياضات توصلوا بها إلى شيء من الاستدراجات.

قال ﷺ: ونحن في هذا الكلام نتكلم على الرياضة مطلقًا كانت من المحق أو من المبطل، ولسنا نتكلم على رياضة أبي حامد الغزالي ﷺ بالخصوص، فإنه إمام حق وولي صدق.

وقولكم: «وهل يمكن سلوكهما لرجل واحد»

جوابه:

إنه يمكن؛ إذ لا تنافي بينهما، فيمكن من الشخص أن يعلق قلبه بالله ﷻ في سائر حركاته وسكناته، ويقيم ظاهره في المجاهدات والرياضات، والله تعالى أعلم.

ـ وسأله الفقيه المذكور أيضًا بما نصه:

ومنها: سيدي، هل يمكن للإنسان أن يعرف قابليته للإرادة وعدمها ـ أي: القابلية الخاصة ـ أو لا يعرفه بذلك إلا غيره من شيخ صالح أو أخ ناصح؟

فأجاب ﷺ بأن القابلية يعرفها الشخص من نفسه، بأن ينظر إلى الغالب على فكره،

---

(١) سقطت من (أ).

فهو الذي خلقت الذات له، ولابد للذات أن تتبع ما الفكر فيه، سواء أقيمت فيه من أول الأمر أو لا.

فمن غلب على فكره محبة الله والميل إلى جنابه، واستحضار عظيم سطوته والخوف من جلاله وكبريائه، فذلك علامة إرادة الخير [به]، سواء كانت ذاته مقامة في المخالفات أو في الموافقات، فإنها وإن أقيمت في المخالفات فسيرجع الله ﷻ بها إلى الخير والفلاح، والرشد والنجاح.

ثم القابلية المذكورة كالرجلة والشجاعة تختلف بالقوة والضعف، وتعلم مراتبها المختلفة، فمن نظر إلى جماعة من الصبيان وهم يلعبون علم مَنْ رجلته قوية، ومَنْ رجلته ضعيفة، ومَنْ رجلته متوسطة، فكذلك أهل القابلية يتفاوتون في حضور المعنى السابق:

فمنهم: من هو في الدرجة العالية بأن يكون هو الغالب عليه في سائر أوقاته.

ومنهم: من يأتيه في أقل أوقاته.

ومنهم: المتوسط.

وسر ذلك أن الفكر والخواطر التي في الباطن نور من أنوار العقل، يمد بها العقل الذات على وفق القدر وما سبق في القسمة، فإن أريد بالذات الخير ألقى العقل عليها الفكر فيه وفي أسبابه حتى تدركه، وإن أريد بالذات الشر ألقى العقل عليها الفكر فيه وفي أسبابه حتى تبلغ إليه وتناله، ثم الخير يتبع مراتب الفكر الثلاثة السابقة، والشر يتبع أيضًا مراتب الفكر فيه.

ثم القابلية لا تختص بما سبق، بل كل ما سبق في القدر أن الذات تدركه وتصل إليه، فإن أمر القابلية يظهر فيه، فمن نظر إلى جماعة من الصبيان وسبق الواحد منهم أن يكون كاتبًا، والآخر أن يكون حجامًا، والآخر أن يكون شرطيًّا مثلاً، فإن الأول يعرف كيف يشد القلم للكتابة ويحصل له ذلك بأدنى تنبيه، ولا يعرف كيف يشد الموسى [للتخفيف][1]، ولا كيف يعلق السكين ولو نبه عسى أن ينبه، والثاني يعرف كيف يشد الموسى ولا يعرف كيف يشد القلم ولا السكين، والثالث يعرف كيف يعلق السكين ولا

---

(١) في (ب): للحلاقة.

يعرف كيف يشد القلم ولا الموسى، و«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[١].

وكذا من غلب على فكره التجر في البز ونحوه، وأراد أبوه أن يقيمه في الفلاحة، فإنه لا يجيء منه خير، ولو أقامه أبوه في التجارة جاء منه ما يحب وما يريد، فخرج من هذا أن قابلية كل شيء مبنية على الفكر فيه، وكل واحد يعلم ما يجول فيه فكره، والله الموفق.

* **قلت**: وقد سمعت من الشيخ ﷺ أن امرأة من المتقدمين كان لها ابنان وبنت، ولما أرادت أن تموت قالت لهم: إن ابني فلانًا يخرج من الصالحين، والآخر يخرج من الظالمين، والبنت سيكون لها مال كثير ودنيا عريضة، فقيل لها: أتعلمين الغيب؟ فقالت: ما أعلم الغيب، ولكني نظرت إلى الأول فرأيته شديد الخوف من الله تعالى، لا يظلم أحدًا من الصبيان، وربه تعالى حاضر في قلبه دائمًا، فعلمت أنه سيصير إلى خير، ونظرت إلى الثاني فرأيته على العكس، فعلمت أن مآله إلى شر، ونظرت إلى البنت وكانت صغيرة فوجدتها تصنع من الخرق البالية خلاخل وقلائد ودماليج وما يلبسه النساء ويتزين به، هذا شغلها دائمًا فعلمت أنها ستصير إلى دنيا كثيرة.

* **قلت**: وأخبرني بعض الناس أنه كان يتيم وأدخلته أمه في صنعة الحرير، وكان يتعاناها وتثقل عليه كثيرًا، حتى مر ذات يوم بقوم وهم يتعانون صنعة الجبس وتخريمه وتزويقه.

قال: فنظرت إليهم فذهب عقلي معهم، فعطلت ذلك اليوم صنعة الحرير وخدمت معهم، فأسرعت جوارحي في الخدمة ونشط قلبي وكأني كنت في السجن وخرجت منه، وحصل لي تيسير عظيم في فهم صنعة الجبس، وما عدت إلى صنعة الحرير أبدًا.

* **قلت**: وهو اليوم رئيس القوم الذين يتعاطون صنعة الجبس، و«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٢].

---

(١) تقدم.

(٢) حديث عمران بن حصين: أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٧، رقم ١٩٨٤٧)، والبخارى (٦/ ٢٧٤٥، رقم ٧١١٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١، رقم ٢٦٤٩)، وأبو داود (٤/ ٢٢٨، رقم ٤٧٠٩)، والنسائى في الكبرى (٦/ ٥١٧، رقم ١١٦٨٠). حديث أبي بكر الصديق: أخرجه أحمد (١/ ٥، رقم ١٩)، والطبراني (١/ ٦٤، رقم ٤٧). حديث عمر: أخرجه الترمذى (٥/ ٢٨٩، رقم ٣١١١). وأخرجه أيضًا: البزار (١/ ٢٧١، رقم ١٦٨).

وأخبرني بعض الناس أنه كان له حمار ضعيف، وكان يسكن بإزاء قوم في البادية، وكان لهم يتيم صغير لا شغل له إلا الركوب على حماري، ولكن يركبه على صفة من يركب الخيل، فيجعل في رجله مهمازًا من شوك، و[يجعل] للحمار لجامًا من سعف الدوم، ويجعل في يده حربة من العيدان، ويظل يحرك في الحمار، وكلما طردناه عاد إليه إن غفلنا عنه، فلما كبر الطفل وبلغ رجع مع القواد الذين يسيرون الخيل للسلطان [أعني: السياس] نصره الله، و«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

ونذكر هنا حكاية معلم الصبيان الذي اختبرهم بأن أعطاهم طيورًا وأمر كل واحد بذبح طائره في الموضع الذي لا يراه أحد، فجاءوا وقد ذبحوا طيورهم إلا واحدًا منهم يقال: إنه هو أبو العباس السبتي ﷺ فإنه رجع إلى الشيخ بطائره فقال: في كل موضع أريد فيه ذبحه أجد الله معي، فعلم الشيخ ﷺ أنه سيصير إلى مقام المعرفة، وأوصى عليه ولم يزل يلاحظه، والله تعالى أعلم.

وسمعت الشيخ ﷺ يقول: إن الرجل إذا كان فيه عرق الولاية وأقامه الله مع أهل المخالفة وبقي معهم مدة، فإنه إذا مر به ولي من الأولياء وهو مع أولئك القوم فإن عرق الولاية الذي فيه يحيا بإذن الله، ويقع لصاحبه انشراح وفرح وانطلاق صدر، هذا بمجرد مرور الولي عليهم، وإن كان صاحب العرق لا يعرفه، ولا تكلم معه [الولي]، ولا جرى بينهما حديث، أمّا إذا جرت بينهما معاشرة وحصلت بينهما معرفة فلا تسأل عن حياة العرق الذي فيه، وزيادة الخير فيه في كل لحظة.

وإذا كان في الرجل عرق الشر الذي فيه كالسرقة مثلاً، وأقامه الله مع أهل الولاية والعرفان، وصار يخدمهم ويخالطهم مدة، فإذا مر بأولئك الجماعة سارق مثلاً فإن الرجل الذي فيه عرق السرقة يحيا وينشرح صدره للشر الذي فيه، وتقوم قيامته بمجرد مرور السارق عليه من غير معرفة منه ولا مخالطة له، أمّا إذا حصلت المعرفة بينهما فإن شره يتم، والعياذ بالله، و«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

فقلت: وهذا باب واسع وطريق نافع يعرفه من مارس تعليم الناس العلم أو نحوه، فإنه إذا عرض عليه هذا الكلام في القابلية وجده كأنه نسخة منقولة مما جرى عليه في زمان التعليم ومعاناته، ولقد أقامني الله تعالى وله الفضل والمنة في مقام التعليم، فبقيت فيه نحوًا

من سبع وعشرين سنة، وحين سمعت كلام الشيخ ﷺ في القابلية والخواطر التي تبتنى عليها الذوات عرضته على ما جرى لخلق كثير تعلموا منا، فوجدته ضابطًا جامعًا مانعًا، وطرحتُ عني بسببه أحمالاً كثيرة كنت أتحملها في تعليمهم، أبالغ لهم في النصح والبيان مع إقامة الدليل والبرهان، وأحب لهم الخير كثيرًا وأتمناه لهم، حتى يسكن ذلك في ذاتي ويصير ذلك كله أكلي وشربي معهم، ثم بعد ذلك لا يجيء منهم شيء، وكل ما بنيته معهم في مدة سنين ينهدم بمجرد مخالطتهم لمن هو من أهل البطالة، بل ينهدم بمجرد غفلتي عنهم وعدم تنبيههم، كالدابة التي تمشي ما دامت تضرب، وإذا قطع عنها الضرب وقفت.

وجرى لخلق كثير غيرهم عكس هذا، وذلك أنهم بمجرد مخالطتهم لنا ومعاشرتهم إيانا يسكن في قلوبهم ما يسمعونه منا، ثم لا يزالون في زيادة في كل مجلس جلسوه معنا، مع كوني لا أبالغ معهم المبالغة التي كنت أفعلها مع القسم الأول، فلم أزل أتفكر في ذلك وأطلب السبب فيه حتى سمعت كلام الشيخ ﷺ في القابلية، وذكرت له ما جرى لي مع القسم الأول.

فقال [لي] ﷺ: اطرح عنك الحمل، فإنك تضرب في حديد بارد، والناس ميسرون لما خلقوا له، والبدايات تدل على النهايات، فانظر إلى البدايات، ونزل الناس منازلهم.

هذا معنى كلامه ﷺ فمن ذلك اليوم استرحت، وحصل لي علم عظيم ـ والحمد لله ـ بأحوال الناس في القابلية في كل شيء، والحمد لله.

فإن كنت كيسًا فطنًا، حاذقًا لبيبًا، فاجعل هذا الكلام نصب عينيك، فإنك تطرح به عن نفسك أحمالاً كثيرة في معاشرة أصناف الناس على اختلاف [طبائعهم][1]، والله ﷻ الموفق.

ـ وسأله الفقيه المذكور سؤالاً يناسب هذا الباب في الجملة ونصه:

ومنها: سيدي، ما معنى قول إبليس اللعين لولي الله سهل بن عبد الله التستري في آية قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] حتى قال له: التقييد صفتك لا صفة الحق، مع كون الآية مقيدة والكلام على وفق العلم، وأيّ حيلة للعبد حتى

(١) في (ب): طبقاتهم.

يقيد كلام الحق ﷻ مع أن الآية مقيدة بدون تقييده، مع أن الشيخ العارف مربي العارفين محيي الدين الحاتمي قال: واللعين أستاذ سهل في هذه ومعلمه، أجيبوا مأجورين، وعليكم أزكى تحية وأطيب سلام.

* **قلت**: صفة المناظرة بين إبليس ـ لعنه الله ـ وبين سهل ﷺ هي أن قال إبليس: إن الله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] وأنا شيء.

فقال له سهل: فإن الله يقول: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] وأنت لست منهم، فالعموم الذي في كل شيء مقيد.

فقال له إبليس، لعنه الله: التقييد صفتك لا صفته ﷻ.

فوقف سهل ولم [يرد][1] جوابًا، حتى قال الحاتمي: إن سهلاً شيخ إبليس في هذه الفائدة، وهي أن التقييد صفته لا صفة الحق ﷻ.

ذكر الشيخ الشعراني ـ رحمه الله تعالى ـ الحكاية وسكت عنها، فتخيل السائل من سكوته صحتها، فاستشكل ذلك بأن التقييد من الله تعالى لا من سهل، فرفع سؤاله إلى الشيخ ﷺ.

فأجاب ﷺ بأن التقييد في الآية من الله تعالى لا من الخلق، وتمسك إبليس ـ لعنه الله ـ بالشبهة التي أوردها بتمسك باطل، والصواب مع سهل ﷺ لا مع إبليس، لعنه الله.

ووجه مدح ذلك الكلام الذي جرى على لسانه، لعنه الله: إن الحاتمي وسهلاً فهما منه ما لم يفهمه إبليس ـ لعنه الله ـ ولا جرى على خاطره، فحرك من سهل التستري الساكن وأيقظ منه النائم والكامن، ورجع إلى مشاهدة ما يعرفه من الحق ﷻ فإن الصوفية ﷺ بعد الفتح ومعرفة الحق على ما هو عليه إذا نظروا إلى الحالة التي كانوا عليها قبل الفتح يجدون أنفسهم مقيدين للحق ﷻ فيما لا يحصى من التقييدات، جاهلين به لا يعرفونه حق معرفته.

فلما قال اللعين: التقييد من صفتك لا من صفته حصل بسبب هذا القول التفات من سهل إلى الحالتين، فحصل له ما حصل، وإن كان اللعين لم يرد المعنى الذي التفت إليه سهل ولا جرى على خاطره، وهذا فن من سماع الصوفية ﷺ.

---

(١) في (ب): يجد.

فقد جاء بعض الأشياخ إلى دار مريد له فدق عليه الباب ولم يكن في الدار غير المريد فقال المريد: من يدق الباب، ما هنا غيري؟ فسمع الشيخ قوله: ما هنا غيري، فصعق وخر مغشيًا عليه، ولم يشعر المريد بشيء من ذلك، فمن قال: إن المريد أستاذ شيخه في هذا الباب فلا ضيق عليه.

وطلبت بنت من أبيها حاجة يأتي بها من السوق، فخرج الأب ليأتي بها فقالت الأم لها: لم كلفت أباك؟ فقالت البنت لها: وهل عندي غيره؟ فسمع قولها صوفي فخر مغشيًا عليه.

وبهذا يعلم بطلان كلام إبليس ـ لعنه الله ـ وصحة لمحات الصوفية وإشاراتهم ﷺ والله تعالى أعلم.

ـ وسأله الفقيه المذكور سؤالاً يبعد من هذا الباب ونصه:

ومنها: سيدي، ما نقل عن بعض العارفين أن في المخالفة مائة رحمة تعود على المؤمن، ما هي هذه المائة رحمة التي أصلها من غضب الله تعالى وعدله؟ وما سر انقلابها إلى رحمته وفضله؟

فأجاب ﷺ بأن المراد بهذه المعصية معصية المؤمن العارف بجلال ربه وعظمته، فإن صاحب هذه المعرفة لا تصدر منه هذه المعصية إلا بحكم غلبة القدر، ولسنا نعني بالعارف خصوص المفتوح عليه، بل نعني به من خلص إيمانه وصفا إيقانه، فإنه والحالة هذه لا يزايله الخوف من ربه ـ تبارك وتعالى ـ في حالة الطاعة، فكيف بحالة المعصية؛ لأن سبب سكون الخوف في ذاته معرفته بعظيم سطوته ﷻ.

فإذا فرضنا دوام هذه المعرفة وانتفاء أضدادها من الغفلة ونحوها، فإن الخوف يدوم ويسكن في الذات ولا يفارقه ولو في حالة الطاعة، فإنه يخاف أن يكون أتى بالطاعة على وجه يبعده من الله تعالى، فترى فرائصه ترعد من هذا الاحتمال رعدة لا يقر له معها قرار، ويعتريه هذا الخوف قبل الفعل وحين الفعل وبعد الفعل، ولا يزال متشوفًا لما ينزل عليه من ربه، خائفًا من هيبة الربوبية وسطوتها، فإذا كان هذا حاله مع الطاعة فكيف يكون حاله مع المعصية؟!.

ولقد عصى بعض المؤمنين ربه ﷻ وعاش بعد تلك المعصية أربعًا وعشرين سنة، ولم تمر عليه ساعة في هذه المدة الطويلة إلا والدموع تسيل من عينيه خوفًا من تلك المعصية، وعصمه الله ـ تبارك وتعالى ـ ببركة هذا الخوف الناشئ عن تلك المعصية في هذه المدة الطويلة من مواقعة الذنوب، وأثابه فضلاً منه تعالى بمراقبة علام الغيوب في هذه المدة الطويلة، وحصل هذا العبد بسبب هذه المعصية على ما لا يحصى من صنوف الرحمات.

وبالجملة: فالمدار على الخوف الساكن في الذات دائمًا، وسببه دوام المعرفة بسطوة الربوبية، وحصلت هذه المعرفة للذات من الروح، والروح من الملأ الأعلى الذين هم أعلم الخلق بربهم ﷻ فإذا كانت الذات طاهرة فإن الروح تمدها بشيء من معارفها، فيربح العبد في سائر أحواله وفي طاعته ومعصيته.

وإذا كانت الذات غير طاهرة فإن الروح تحجب عنها معارفها، فتنقطع الذات مع الشهوات وتميل مع اللذات، ويكون هذا هو الساكن فيها، والحالة المحمودة تكون عندها بمنزلة المنام، والغالب هو الساكن، والحكم للغالب، فتصير أعماله لتحصيل شهواته، فيطيع لغرض نفع ذاته لا لما تقتضيه العبودية من القيام بحق الربوبية، ويعصي لاستيفاء لذاته ولا يبالي.

فظهر أنه ليس المدار على الطاعة والمعصية، بل المدار على الخوف وضده، وفي الحقيقة المدار على المعرفة والجهل، والعدد المذكور ـ أعني: مائة رحمة ـ ليس مرادًا لخصوصه، بل المراد ما أشرنا إليه، والله تعالى أعلم.

وبقي للفقيه المذكور سؤالان، فلنوردهما هنا ثم نتفرغ للمقصود:

قال الفقيه المذكور:

ومنها: سيدي، قول العارفين: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه، فكيف يرى القديم في الحادث؟! تعالى الله عن الحلول والاتحاد.

وقولهم: لا هو عينه ولا هو غيره، وفيه رفع للمتناقضين وهو محال.

فأجاب ﷺ بأن معنى القول الأول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت فعل الله فيه، فهم ﷺ لقوة عرفانهم يشاهدون أفعاله في المكونات والمخلوقات، وما من مخلوق إلا وأفعاله تعالى

فيه لا محالة ولا حلول ولا اتحاد، و[ثم][1] أسرار أخر لا تفشى ولا تذكر.

وبالجملة: فتحقيق الجواب لا يسطر في كتاب.

وأمّا الكلام الثاني فغير ظاهر، فإن القديم مباين للحادث، والمباين للشيء لا يكون عينه قطعًا، وهو مغاير له بلا شك ولا ارتياب، فالعينية مرتفعة، والغيرية ثابتة، والله الموفق.

ومنها: سيدي، هل استحضار صورة النبي ﷺ في ذهن المؤمن وتشخصه إياها هو من عالم الروح أو من عالم المثال أو من عالم الخيال؟ وهل الصورة الذهنية وما اشتملت عليه من تعقل المحادثة والمكالمة محفوظ صاحبها من الشيطان مثل الرؤيا المنامية عملاً بقوله ﷺ: «مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِي»[2] أو كما قال ﷺ أو هي ليست مثلها؟ أجيبوا مأجورين، وعليكم أزكى تحية وسلام.

فأجاب ﷺ بأن ذلك الاستحضار من روح الشخص وعقله، فمن توجه بفكره إليه ﷺ وقعت صورته في ذهنه، فإن كان ممن يعلم صورته الكريمة لكونه صحابيًّا، أو من العلماء الذين عنوا بالبحث عنها ثم حصلوها، فإنها تقع في فكره على نحو ما هي عليه في الخارج، وإن كان من غير هذين فإنه يستحضره في صورة آدمي في غاية الكمال في خلقه وخلقه، فقد توافق الصورة التي في فكره ما في الخارج، وقد تخالفه، والحاضر في الفكر هو صورة ذاته ﷺ لا صورة روحه ﷺ فإن الذي شاهده الصحابة ﷺ وأخبر عنه العلماء هو الذات لا الروح الشريفة، ولا يجول الفكر إلا فيما يعلمه الشخص ويعرفه.

فقولكم: هل هو من عالم الروح إن أردتم به الاستحضار فهو من عالم الروح ـ أي: من روح المتفكر ـ وإن أردتم به الحاضر؛ أي: فهل الحاضر في أفكارنا روحه ﷺ فقد سبق أنه ليس إياها.

---

(١) في (ب): هناك.

(٢) حديث أنس: أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٩، رقم ١٣٨٧٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٤، رقم ٣٠٤٦٠) والبخاري (٦/ ٢٥٦٨ رقم ٦٥٩٣)، والترمذي في الشمائل (١/ ٣٥٣، رقم ٤١٥).
حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٢ رقم ٧١٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٥، رقم ٢٢٦٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩، رقم ٣٩١٧).

وأمّا المحادثة والمكالمة إذا حصلت لهذا المتفكر فإن كانت ذاته طاهرة وتحبها روحه، ولم تحجب عنها أسرارها، وكانت معها كالخليل مع خليله، فالمحادثة معصومة وهي حق، وإن كانت الذات على العكس فالأمر على العكس، والله الموفق.

انتهت أجوبته ﷺ ونفعنا به آمين.

وقد ذكرت له ﷺ ذات يوم أن بعض الصالحين كان يذكر مع جماعة من أصحابه، ثم إن بعضهم تبدل لونه وتغير حاله وبدل جلسته، فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ [الحجرات:٧] يريد أن النبي ﷺ حضرهم في تلك الساعة، وأنه شاهد ذلك.

فقلت للشيخ ﷺ: هل هذه المشاهدة التي وقعت لهذا الرجل مشاهدة فتح أو مشاهدة فكر؟

فقال: مشاهدة فكر لا مشاهدة فتح، ومشاهدة الفكر وإن كانت دون مشاهدة الفتح إلا أنها لا تقع إلا لأهل الإيمان الخالص، والمحبة الصافية، والنية الصادقة.

وبالجملة: فهي لا تقع إلا لمن كمل [إيمانه] وتعلقه بالنبي ﷺ وكم من واحد تقع له هذه المشاهدة فيظنها مشاهدة فتح وإنما هي مشاهدة فكر، وهذا القسم الذي تقع له هذه المشاهدة وهو غير مفتوح عليه إذا قيس مع عامة المؤمنين كانوا بالنسبة إليه [كالعدم][1]، ويكون إيمانهم بالنسبة إلى إيمانه كلا شيء، والله تعالى أعلم.

* **قلت**: ومما يؤيد المشاهدة الفكرية وأنها تقع لغير المفتوح عليه، كونها تقع لمن كملت محبته في شخص وإن كان غير النبي ﷺ.

ولقد أخبرني بعض الجزارين أنه مات له ولد كان يحبه كثيرًا، وأنه لم يزل شخصه في فكره حتى أن عقله وجوارحه كلها معه، فكان هذا دأبه ليلاً ونهارًا، إلى أن خرج ذات يوم إلى باب الفتوح أحد أبواب فاس ـ حرسها الله ـ لشراء الغنم على عادة الجزارين، فجال فكره في أمر ولده الميت، فبينما هو يجول فكره إذ رآه عيانًا وهو قادم إليه حتى وقف إلى جنبه.

---

(١) في (ب): العوام.

قال: فكلمته وقلت له: يا ولدي، خذ هذه الشاة ـ لشاة اشتراها ـ حتى أشتري أخرى، وقد حصلت لي غيبة قليلة عن حسي، فلما سمعني من كان قريبًا [مني] أتكلم مع الولد قالوا: مع من تتكلم أنت؟ فلما كلموني رجعت إلى حسي، وغاب الولد عن بصري، فلا يدري ما حصل في باطني من الوجد عليه إلا الله تبارك وتعالى.

* قلت:

وسمعت الشيخ ﷺ يقول: ينبغي أن تكون هذه المحبة بين المريد والشيخ، فإنها نافعة جدًّا.

وسمعته يقول: إن أهل هذه المحبة يضرون وينفعون، كما يقع ذلك من أهل التصرف، ويقول: إن نار المحبة إذا شعلت لا يردها شيء.

وسمعته ﷺ يقول: كان لبعض الأشياخ مريد، وكان المريد يحب الشيخ كثيرًا حتى صار الشيخ لا يغيب عن حس المريد وفكره، فكان الشيخ إذا فعل فعلاً في داره حاكاه المريد وهو في داره، فإذا قال الشيخ في داره مناديًا لابنته: يا فاطمة، قال المريد في داره: يا فاطمة.

وإذا قال الشيخ: افعلوا كذا، قال المريد في داره: افعلوا كذا، وإذا جعل الشيخ يلوي عمامته على رأسه، أخذ المريد شيئًا وجعل يلويه على رأسه، هذا دأبه في أحواله بحال الشيخ دائمًا، وبهذه المحبة البالغة إلى هذا القدر تقع الوراثة.

وسمعته ﷺ يقول: كان بعض الناس يعشق بنتًا جميلة الصورة، فبلغ من محبته فيها أنه إذا هتف شخص باسمها وناداها: يا فاطمة، يقول العاشق: نعم من غير شعور منه.

قال ﷺ: حدثوا عني بهذا الأمر، أنا رأيته بعيني، إذا نودي باسمها قال: نعم، وهو لا يشعر، فإذا كانت هذه المحبة في الأمور الهزلية فكيف ينبغي أن يكون أهل الجد؟

وقد سمعته ﷺ يقول: كان سيدي منصور ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ومن الحجة على من يدعي محبة الله تعالى ما وقع لبعض أولاد النصارى، فإنه عشق بنتًا لبعض أكابرهم، فلما اجتمع بها ونام معها في فراش واحد، وذهب فكره في بحار محبتها، نظرت إلى وجهه فرأت فيه زبيبة، فأرادت قطعها وكانت عندها سكين وهي مسمومة ولم تشعر بسمها، فقطعت

تلك الزبيبة وسرى السم في ذاته، فخرجت روحه وهو غائب في محبتها، فهذا كافر بلغ في محبته الشيطانية إلى أن خرجت روحه وهو لا يشعر، فكيف ينبغي أن تكون حال المؤمنين مع ربهم ﷻ؟

وسمعته ﷺ **يقول:** إن المحب لا ينتفع بمحبة الكبير له ولو كان الكبير نبيًا، حتى يكون الصغير هو الذي يحب الكبير، فحينئذ ينتفع بمحبته، إلا الله تعالى فإنه تعالى إذا أحب عبدًا نفعته محبته ولو كان العبد في غاية الإعراض.

وقال ﷺ: إن الصغير إذا أحب الكبير جذب ما في الكبير ولا عكس، وكانت بين يديه إجاصة.

فقال: إن هذه إذا أمدها الله تعالى بمحبة تفاحة حامضة مثلاً، وتمكنت فيها المحبة غاية فإنها تسف ما فيها، حتى إنا إذا شققناها وجدنا حموضة التفاحة فيها، ولا نجد في التفاحة شيئًا من طعم الإجاصة، إلا الله تعالى فإنه إذا أحبه العبد لا يجذب شيئًا من أسراره تعالى ما لم يحبه الله.

وسر الفرق: هو أن الله تعالى لا يحب عبدًا حتى يعرفه به، وبالمعرفة يطلع على أسراره تعالى، فيقع له الجذب إلى الله تعالى، بخلاف محبة العبد من غير معرفة له بربه ﷻ فإنها لا تقتضي شيئًا.

فقلت: فإنهم يقولون: إن الشيخ يكون مع مريده في ذات المريد ويسكن معه فيها.

فقال ﷺ: ذلك صحيح، وهو من المريد؛ لأنه إذا قويت محبته جذب الشيخ حتى يكون على الحالة المذكورة، فتصير ذات المريد مسكنًا للشيخ، وكل واحد يزين مسكنه.

يشير إلى تأثير الشيخ في ذات المريد إذا سكنها.

وسمعته ﷺ **يقول:** إن المريد إذا أحب الشيخ المحبة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته، ويكون بمنزلة الحبلى التي تحمل بولدها، فإن حملها تارة يتم صلاحه فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه، وتارة يسقط ولا يجيء منه شيء، وتارة يحصل له رقاد ثم يفيق، والإفاقة تختلف فقد يفيق بعد شهر، وقد يفيق بعد عام، وقد يفيق لأكثر من ذلك.

فهكذا حالة المريد إذا حمل لشيخه، فتارة تكون محبته خالصة تامة دائمة، فلا يزال

أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله عليه، وتارة تكون محبته منقطعة بعد أن كانت صادقة، وانقطاعها بسبب عروض مانع ـ نسأل الله السلامة منها ـ فتتبدل نيته في الشيخ، وتنقطع أسرار الشيخ عن ذاته بعد أن كانت ساطعة عليها، وتارة تقف محبته في سيرها لمدة قريبة أو متوسطة أو طويلة، فتقف أسرار ذات الشيخ عن ذاته، فإذا رجعت المحبة رجعت الأسرار، فليختبر المريد نفسه من أي قسم هو من هذه الأقسام الثلاثة، وليسأل الله تعالى العفو والعافية والتوفيق والهداية، إنه سميع قريب.

* **قلت**: وهذه الأقسام موجودة في المريدين، فليتحفظ المريد على هذا الكلام، فإنه نفيس في بابه، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: لا ينتفع المريد بمحبة شيخه إذا أحبه لسره أو ولايته أو لعلمه أو كرمه أو لنحو ذلك من العلل، حتى تكون محبته متعلقة بذات الشيخ متوجهة إليه، لا لعلة ولا لغرض، مثل المحبة التي تكون بين الصبيان، فإن بعضهم يحب بعضًا من غير أغراض باعثة على المحبة، بل مجرد الألفة لا غير.

فهذه المحبة ينبغي أن تكون بين المريد والشيخ؛ حتى لا تزهق محبة المريد إلى الأغراض والعلل، فإنها متى زهقت إلى ذلك دخلها الشيطان وأكثر فيها من الوساوس، فربما تنقطع وربما تقف، كما سبق في القسمين الأخيرين، والله أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ: لم كانت المحبة للعلم والولاية والسر ونحو ذلك لا تنفع؟

فقال ﷺ: لأن الأسرار والمعارف ونحوها كلها من الله تعالى، وكل واحد يحب الله تعالى، فإلى الآن ما أحب شيخه، وإنما تتحقق محبته للشيخ إذا أحبه لخصوص ذاته لا لما قام بها من الأسرار.

فقلت: وكذا ذات الشيخ هي من الله تعالى وكل شيء منه، فلم نفعت محبة البعض دون البعض؟

فقال: صدقت، وغرضنا بمحبة الذات الكناية عن كون المحبة خالصة لله تعالى؛ لأن الذات بمجردها لا يتصور منها نفع ولا غيره، فإذا توجهت المحبة نحوها كان ذلك علامة على الخلوص من الشوائب.

فقلت: إن الناس لابد لهم من أغراض وإرادات، فمن حرث بقصد [القصيل] الحاصل له منه، فيُحِبّ الحرث [للقصيل][1] لا لذاته.

فقال ﷺ: نعم، ولكنه إذا نوى القصيل وقصده في أول الأمر، ثم شغل فكره بغيره بحيث إنه لا يبقى له على بال، فهذا يحصل له القصيل الكثير وتجيئه الإصابة العظيمة.

وأمّا إن شغل فكره بهذا القصيل ليله ونهاره، وجعل يفكر ويقدر كيف يكون وما يفعل به إذا كان، فهذا لا يحصل له قصيل، بل يركبه الوسواس قبل أن يحصل له القصيل، فلا يزال يقول في نفسه: هل أدرك هذا القصيل، ولعل الآفة الفلانية تأتي عليه، أو يغير عليه بنو فلان، ونحو هذا من الوسواس، بخلاف الأول فإنه مستريح الفكر في أمر القصيل وفي أمر الوسواس، فهكذا حال من أحب الشيخ لذاته، ومن أحبه لعلة.

وكنت أتكلم معه ذات يوم ونحن في «جزاء ابن عامر» بمحروسة «فاس»، أمّنها الله تعالى.

فقال لي: إن سيدي منصورًا في رأس الدرب، أتحب أن تلتقي معه وتعرفه؟

فقلت: يا سيدي، نعم حبًا وكرامة، وكيف لا أحب أن ألتقي مع القطب؟!

فقال لي ﷺ: أمّا أنا فلو قدرنا أن أباك وأمك ولدا من يماثلك في شكلك وصفتك وعلمك وجميع ما عليه ذاتك باطنًا وظاهرًا عدد مائة، ما نظرت إلى واحد منهم، أنت حظي وقسمتي [من الدنيا]، وهم عندي كسائر الناس، فاستيقظت من غفلتي، وانتبهت من نومتي، وعلمت أني ما جئت بشيء، فإن المحبة لا تقبل الشركة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن طالب السر من المريد هو ذاته الترابية، ومعطي السر من الشيخ هو ذاته الترابية، فإذا كانت الذات الترابية من المريد تحب الذات الترابية من الشيخ محبة مقصورة عليها أمدتها بأسرارها ومعارفها، وإذا كانت ذات المريد تحب أسرار ذات الشيخ وذهقت المحبة إليها وإلى معارفها منعتها الذات الترابية من مطلوبها، ثم لا تقدر لها الروح ولا غيرها على شيء، فليجتهد المريد جهده في محبة ذات شيخه، معرضًا عن النفع مطلقًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله أعلم.

---

(١) في (ب): للفضل.

ـ **وسألته** ﷺ عن المحبة: هل لها من أمارة وعلامة؟

فقال ﷺ: **لها أمارتان:**

الأمارة الأولى: أن تكون راحة المريد في ذات شيخه، فلا يتفكر إلا فيها، ولا يجري إلا لها، ولا [يهيم][1] إلا بها، ولا يفرح إلا بها، ولا يحزن إلا عليها، حتى تكون حركاته وسكناته سرًا وعلانية، حضورًا وغيبة، في مصالح ذات الشيخ وما يليق بها، ولا يبالي بذاته ولا بمصالحها.

الأمارة الثانية: الأدب والتعظيم لجانب شيخه، حتى لو قدر أن شيخه في بئر وهو في صومعة لرأى بعين رأسه أنه هو الذي في البئر وأن شيخه هو الذي في الصومعة؛ لكثرة استيلاء تعظيم الشيخ على قلبه، بل هو على عقله.

وقال ﷺ: إن الناس يظنون أن الجميل للشيخ على المريد، والجميل في الحقيقة للمريد على الشيخ؛ لأنه سبق أن محبة الكبير لا تنفع، ومحبة المريد هي الجاذبة، فلولا طهارة ذات المريد، وصفاء عقله، وقبول نفسه للخير، ومحبته الجاذبة، ما قدر الشيخ على شيء، ولو كانت محبة الشيخ هي النافعة لكان كل من تلمذ له يصل ويبلغ ما بلغت الرجال.

وسمعته ﷺ **يقول**: علامة كون المريد يحب الشيخ المحبة الصادقة النافعة أن تقدر زوال الأسرار والخيرات التي في ذات الشيخ حتى تكون ذات الشيخ مجردة من ذلك كله، وتكون كذوات سائر العوام، فإن بقيت المحبة على حالها فهي محبة صادقة، وإن تزحزحت المحبة وزالت بزوال الأسرار فهي محبة كاذبة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: علامة المحبة الصافية سقوط الميزان من المريد على الشيخ، حتى تكون أفعال الشيخ وأقواله وجميع أحواله كلها موفقة مسددة في نظر المريد، فما فهم له وجهًا فذاك، وما لم يفهم له سرًا وكله إلى الله تعالى، مع جزمه بأن الشيخ على صواب، ومتى جوّز أن الشيخ على غير صواب فيما ظهر له خلاف الصواب فيه، فقد سقط على أم رأسه ودخل في زمرة الكاذبين.

قال ﷺ: والشيخ لا يطلب من مريده خدمة ظاهرية، ولا دنيا ينفقها عليه، ولا شيئًا

---

(١) في (ب): يهتم.

من الأعمال البدنية، وإنما يطلب منه هذا الحرف لا غير، وهو أن يعتقد في الشيخ الكمال والتوفيق، والمعرفة والبصيرة، والقرب من الله ﷻ ويدوم على هذا الاعتقاد اليوم على أخيه، والشهر على أخيه، والسنة على أختها، فإن وجد هذا الاعتقاد انتفع المريد به، ثم بكل ما يخدم به الشيخ بعد ذلك، وإن لم يوجد هذا الاعتقاد أو وجد ولم يدم، فإن عرضت فيه الوساوس فالمريد على غير شيء.

وكنت ذات يوم معه بقرب باب الحديد أحد أبواب فاس ـ حرسها الله تعالى ـ ومعنا بعض الناس، وكان يخدم الشيخ كثيرًا، [ويتسخر له][1] في كل ما يعن ويعرض، حتى إنه لا يبلغه في ذلك أحد من أصحابه ﷺ.

فقال له الشيخ ﷺ: أتحبني يا فلان لله ﷻ؟

فقال: نعم يا سيدي، محبة خالصة لوجه الله الكريم لا رياء ولا سمعة، فغيرني ذلك حين سمعته.

فقال له الشيخ: أفرأيت إن سمعت أني سلبت وزالت الأسرار التي في ذاتي، أتبقى على محبتك؟

قال:نعم.

فقال الشيخ: فإن قالوا لك: إني رجعت طراحًا أو زبالاً أو نحو ذلك، أتبقى على محبتك؟

قال: نعم يا سيدي.

قال الشيخ: فإن قالوا لك: إني رجعت عاصيًا أرتكب [المعاصي] والمخالفات ولا أبالي، أتبقى على محبتك؟

قال: نعم.

قال الشيخ: وإن مرت عليّ وأنا على ذلك سنة ثم سنة ثم سنة، إلى أن عد عشرين سنة.

---

(١) في (ب): ويقضي حوائجه.

قال: نعم، ولا يدخلني شك ولا ارتياب.

فقلت للرجل: ويحك، إن هذا أمر لا تطيقه.

فقال له الشيخ: إني سأختبرك.

فقلت للرجل: ويحك، هذا أول الخوف عليك، وكيف يطيق الأعمى أن يختبره البصير، فاطلب من الشيخ العفو والعافية، واعترف له بالعجز والتقصير، وأنا معك في ذلك، ثم تضرعنا إليه جميعًا في الإقالة والعفو، فسبق ما سبق، إلى أن اختبره بأمر فيه صلاحه، فلم يظهر له وجهه، فلم يطقه، فتبدلت نيته في الشيخ ﷺ.

* **قلت**: وسر الله لا يطيقه إلا من كان فخاره صحيحًا، بأن يكون صحيح الجزم، نافذ العزم، ماضي الاعتقاد، لا يصغي لأحد من العباد، قد صلى على من عدا شيخه صلاته على الجنازة.

ولنثبت في هذا الباب حكايات ليعتبر بها من أراد صلاح نفسه، بعد تقديم كلام سمعته من الشيخ ﷺ وهو كالمقدمة للحكايات.

وسمعته ﷺ يقول: كنت قبل أن يفتح عليّ أشاهد صورة هائلة سوداء طويلة جدًّا على صورة جمل، وقع لي هذا مرة واحدة، فلما فتح عليَّ وشاهدت من عوالم ربي ما قدر لي، فتشت عن عالم الصورة الهائلة، وطلبت جنسها في أيّ موضع هو، فما رأيت له خبرًا.

ـ فسألت سيدي محمد بن عبد الكريم ﷺ عن ذلك، فأخبرني أنه لا وجود لجنس تلك الصورة أصلاً.

فقلت له: وأيّ شيء شاهدت؟

فقال: ذلك من فعل الروح؛ أعني: روح ذاتك.

فقلت له: وكيف ذلك؟

فقال: إن الذات إذا جعلت الشيء بين عينيها وجزمت به ساعفتها الروح في إيجاد الصورة التي جزمت بها وجعلت تخاف منها، فتساعفها الروح في إيجادها ولو كان فيها ضرر الذات.

قال: وجزم الذات لا يقوم له شيء لا في جانب الخير ولا في جانب الشر.

قال سيدي محمد بن عبد الكريم: وكنت قبل الفتح مررت بموضع فعرض لي بحر في الطريق لا يقطع إلا بالسفن، وهو من البحار التي على وجه الأرض، فحصل لي في الذات جزم عظيم بأني أمشي عليه ولا أغرق، ولا يصيبني شيء.

قال: فوضعت رجلي على ظهر الماء والجزم يتزايد، فلم أزل أمشي فوقه حتى قطعته للساحل الآخر، فلما رجعت مرة أخرى وزال الجزم من ذاتي وجعلت أشك في المشي عليه، فأدليت رجلي لأختبر، فغرقت في الماء فأخرجتها وعلمت أني لا أطيق مشيًا عليه.

قال الشيخ ﷺ: وما دامت الذات جازمة بالشيء فإن الشيطان لا يقربها، وإنما يقربها إذا ذهب الجزم عنها وهو يعلم بذهابه؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإذا رآه ذهب أقبل عليها بالوساوس حتى يفوتها الخير.

قال ﷺ: فالجزم مثل سور المدينة [الصحيح] الحصين، فمتى كان للمدينة سور فلا يطمع فيها العدو، ومتى حصل في السور خلل وظهرت فيه أبواب وفرج بادر العدو للدخول، فعيب الشيطان ووسوسته تابع لعيب سور الذات الذي هو الجزم، فليبادر كل عاقل لصلاح [سور][1] ذاته؛ حتى لا يقربه شيطان ولا يستفزه إنسان.

ومن هذا المعنى سمعته ﷺ **مرة يقول**: إذا وعد الصادق أحدًا بشيء من أمور الآخرة أو الدنيا، فإن كان في وقت سماعه للوعد ساكنًا مطمئنًا، جازمًا بصدق الوعد فهو علامة على أنه يدرك ذلك الشيء لا محالة، وإن كان في وقت سماعه للوعد مضطربًا مرتابًا في صدق الوعد فهو علامة على أنه لا يدرك ذلك الشيء، فالجزم علامة أهل الصدق والتحقيق، نسأل الله تعالى بمنه وفضله أن يرزقنا حلاوته وأسراره.

وأمّا الحكايات: فمنها:

ما سمعت من الشيخ ﷺ **يقول**: كان بعض من أراد الله [رحمته][2] في الماضين يحب الصالحين، فألقى الله في قلبه أن خرج من ماله فباعه وجمع ثمنه، فذهب به لبعض من شهر

---

(١) في (ب): عيب.

(٢) في (ب): به خيرًا.

عند الناس بالصلاح، وكانت تقصده الوفود من النواحي، فذهب إليه هذا المرحوم بجملة ماله حتى بلغ بلده، فسأل عن داره فدل عليها، فدق الباب [فخرج الخادم][1].

فقال: ما اسمك؟

فقال: عبد العلي.

وكان الشيخ المشهور بالولاية من العصاة المسرفين على نفوسهم، وكان له نديم يتعاطى معه الشراب وغيره اسمه عبد العلي، فوافق اسمه اسم هذا المرحوم، فذهبت الجارية فقالت للشيخ: اسم هذا الذي دق الباب عبد العلي.

فقال، وظن أنه نديمه: ائذني له.

فدخل على الشيخ فوجد الشراب بين يديه وامرأة فاجرة معه، ورزقه الله تعالى الغفلة عن ذلك كله.

فتقدم إليه فقال: يا سيدي، سمعت بك من بلادي، وجئتك قاصدًا لتدلني على الله ﷻ وهذا مالي أتيتك به لله تعالى.

فقال له الشيخ: يتقبل الله منكم، ثم أمر الجارية أن تدفع له رغيفًا، فأخذه وأعطاه الفأس وأمره بالخدمة في بستان للشيخ عينه له، فذهب ذلك المرحوم من ساعته ونفسه مطمئنة وقلبه مسرور بقبول الشيخ له، فذهب فرحًا للخدمة، وقد لقي نصبًا من سفره للشيخ [الكذاب]، وما استراح حتى بلغ البستان، وجعل يخدم بفرح وسرور ونشاط نفس، فكان من قدر الله ﷻ وحسن جميله بذلك المرحوم أن صادف مجيئه للشيخ الكذاب المسرف [على نفسه] وفاة رجل من أكابر العارفين، وكان من أهل الديوان، فحضر وفاته الغوث والأقطاب السبعة.

فقالوا له: يا سيدي فلان، كم مرة ونحن نقول لك: اهبط إلى مدينة من مدن الإسلام، فعسى أن تلقى من يرثك في سرك، ولم تساعدنا، فالآن حانت وفاتك فيضيع سرك وتبقى بلا وارث.

---

(١) في (ب): فخرجت الجارية.

فقال لهم: يا سادتي، قد ساق الله إليَّ من يرثني وأنا في موضعي.

فقالوا له: ومن هو؟

فقال: عبد العلي الذي وفد على فلان المبطل، فانظروا إلى حسن سريرته مع الله ﷻ وإلى تمام صدقه، ورسوخ خاطره، ونفوذ عزمه، وصلابة جزمه، فإنه رأى ما رأى ولم يتزلزل له خاطر، ولا تحرك له وسواس، فهل سمعتم بمثل هذا الصفاء الذي في ذاته، أفتوافقون على إرثه؟

فقالوا: نعم.

فخرجت روح الولي، واتصل سيدي عبد العلي بالسر، وأثابه الله ﷻ على حسن نيته، فوقع له الفتح وعلم من أين جاءته الرحمة، وأن الشيخ الذي وفد عليه مسرف كذاب، وأن الله تعالى رحمه بسبب نيته لا غير، والله الموفق.

ومنها:

ما سمعته من الشيخ ﷺ **قال**: كان لبعض المشايخ مريد صادق، فأراد أن يمتحن صدقه يومًا.

فقال له: يا فلان، أتحبني؟

قال: نعم يا سيدي.

فقال له: من تحب أكثر أنا أو أبوك؟

فقال: أنت يا سيدي.

فقال: أفرأيت إن أمرتك أن تأتيني برأس أبيك، أتطيعني؟

فقال: يا سيدي، فكيف لا أطيعك، ولكن الساعة ترى، فذهب من حينه وكان ذلك بعد أن رقد الناس، فتسور جدار دارهم وعلا فوق السطح، ثم دخل على أبيه وأمه في منزلهما، فوجد أباه يقضي حاجته من أمه، فلم يمهله حتى يفرغ من حاجته، ولكن [برك][1]

---

(١) في (ب): سقط.

عليه وهو فوق أمه، فقطع رأسه وأتى به للشيخ وطرحه بين يديه.

فقال له: ويحك، أتيتني برأس أبيك؟!

فقال: يا سيدي نعم، أمّا هو هذا؟

فقال له: ويحك، إنما كنت مازحًا.

فقال له المريد: أمّا أنا فكل كلامك عندي لا هزل فيه.

فقال له الشيخ ﷺ: انظر هل هو رأس أبيك؟

فنظر المريد فإذا هو ليس رأس أبيه.

فقال له الشيخ: رأس من هو؟

فقال له: رأس فلان العلج.

قال: وكان أهل مدينتهم يتخذون العلوج كثيرًا بمنزلة العبيد السودانيين.

قال: وكان أبوه غاب تلك الليلة فخانته زوجته في الفراش، ووعدت علجًا كافرًا ومكنته من نفسها، وكوشف الشيخ ﷺ بذلك، فأرسل المريد ليقتله على الصفة السابقة ليمتحن صدقه، فعلم أنه جبل من الجبال، فكان وارث سره والمستولي بعده على فتحه، والله الموفق.

ومنها:

إني سمعت الشيخ ﷺ **يقول**: جاء بعض المريدين لشيخ عارف فقال له: يا سيدي، القبول لله ﷻ.

فقال: نعم، ثم أمره بالمقام عنده، والعكوف على خدمته، وأعطاه مساحة في رأسها كورة حديد زائدة لا نفع فيها إلا تثقيل المساحة، وكان المريد هو وارث الشيخ بشرط ألّا ينتبه لكورة الحديد المذكورة، فإن انتبه وقال: ما فائدتها؟ ولأيّ شيء تصلح؟ ولا معنى لها إلا التثقيل فإنه لا يرث منه شيئًا.

قال ﷺ: فبقي في خدمته سبع سنين، وهو يخدم بالفاس، ولا تحرك له عرق

وسواس، ولا هزته عواصف رياح الشيطان، وصارت الكورة المذكورة بمنزلة العدم الذي لا يرى ولا يسمع، فهذه حالة الصادقين الموفقين ﷺ والله تعالى الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول**: كان لبعض العارفين بالله ﷻ مريد صادق، وكان هو وارث سره، فأشهده الله تعالى من شيخه أمورًا كثيرة منكرة، ومع ذلك فلم يتحرك له وسواس، فلما مات شيخه وفتح الله عليه شاهد تلك الأمور، وعلم أن الصواب مع الشيخ فيها، وليس فيها ما ينكر شرعًا إلا أنها اشتبهت عليه.

فمن ذلك: إن امرأة كانت من جيران الشيخ، وكانت تذكر بالسوء، وكان المريد يعرف شخصها، وكان للشيخ امرأة على صورتها، وكان المريد لا يعرفها، وكان للشيخ موضع يخلو به بين باب الدار وبين البيوت، وكان المريد لا يبلغ إليه وإنما يقف بالباب، فاتفق أن دخلت المرأة المشهورة بالسوء على المريد وهو بالباب، فجازت الدار، واتفق أن خرجت امرأة الشيخ الشبيهة بها، فدخلت على الشيخ الخلوة، وكان الشيخ أرسل إليها ليقضي حاجته منها، فدخلت وقام إليها الشيخ ومرت الشبيهة بها نحو البيوت، فرمى المريد ببصره إلى الخلوة فرأى المرأة مع الشيخ وهو يقضي حاجته منها، فما شك أنها المشهورة بالسوء، وربط الله على قلبه فلم يستفزه الشيطان.

ثم خرجت المرأة وحانت الصلاة، فخرج الشيخ للصلاة وتيمم، وكان به مرض منعه من الاغتسال، فما شك المريد أن الشيخ تيمم عن غير ضرر، وربط الله على قلب المريد، وكان بالشيخ مرض منعه من هضم الطعام، فصنعوا له ماء الفلنيص عصروه وأتوا له بمائه ليشربه، فدخل المريد فوجده يشربه، فما شك أنه ماء خمر، وربط الله على قلبه فلم يتحرك عليه وسواس، فلما فتح الله عليه علم أن المرأة التي وطئها الشيخ امرأته لا المرأة المشهورة بالسوء، وعلم أن التيمم الذي فعله الشيخ لضرر كان بجسده، وعلم أن الماء الذي شربه الشيخ ماء فلنيص لا ماء خمر، والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول**: كان لبعض المريدين أخ في الله ﷻ فمات ذلك الأخ وبقي المريد، فجعل إذا فتح الله عليه بشيء يقسمه بين أولاده وبين أولاد الأخ في الله، وكان لهذا المريد أرض مع إخوانه فبيعت عليهم من جانب الخزن ظلمًا، فلما أخذوا ثمنها كان نصيب المريد منها أربعين مثقالاً سكة زماننا.

فقال له إخوانه: ما تفعل بدراهمك؟

فقال: أقسمها بيني وبين أولاد أخي في الله.

فاستحمقوه وقالوا: ما رأينا مثلك في نقصان العقل، تسبب بدراهمك واشتر بها كذا واصنع بها كذا، واترك عليك هذه الحماقة التي أنت مشتغل بها.

فأرادت نفسه أن تميل إلى قولهم فقال لها: يا نفسي، ما تقولي لله ﷻ إذا وقفت بين يديه غدًا حيث يقول لي: رزقتك أربعين مثقالاً فاستأثرت بها وضيعت حق الأخوة، فاليوم أضيعك كما ضيعتها.

فوفقه الله فقسم الدراهم بينه وبين أولاد أخيه في الله، فلما خرج من عندهم فتح الله عليه وأعطاه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وجعله من العارفين؛ لصدق نيته ولصداقة عزمه ونفوذ جزمه، والله الموفق.

وسمعت من غير الشيخ ﷺ: إن بعض الأكابر كان له عدة أصحاب، وكان لا يتخيل النجابة إلا من واحد منهم، فأراد أن يختبرهم يومًا، فاختبرهم ففروا بجملتهم سوى ذلك الواحد، وذلك أنه تركهم حتى اجتمعوا على باب خلوته، فأظهر لهم صورة امرأة جاءته فدخلت الخلوة، فقام الشيخ ودخل معها، فأيقنوا أن الشيخ اشتغل معها بالفاحشة، فتفرقوا كلهم وخسرت نيتهم إلا ذلك الواحد، فإنه ذهب وأتى بالماء وجعل يسخنه بقصد أن يغتسل به الشيخ.

فخرج عليه الشيخ، فقال: ما هذا الذي تفعل؟

فقال: رأيت المرأة قد دخلت، فقلت: لعلك تحتاج إلى غسل، فسخنت لك الماء.

فقال له الشيخ: وتتبعني بعد أن رأيتني على المعصية؟

فقال: ولم لا أتبعك والمعصية لا تستحيل عليك، وإنما تستحيل في حق الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولم أخالطك على أنك نبي لا تعصي، وإنما خالطتك على أنك بشر، وأنك أعرف مني بالطريق، ومعرفتك بالطريق باقية فيك، والوصف الذي عرفتك عليه لم يزل، فلا تتبدل لي نية ولا يتحرك لي خاطر.

فقال له الشيخ: يا ولدي، تلك الدنيا تصورت بصورة امرأة، وأنا فعلت ذلك عمدًا؛ لينقطع عني أولئك القوم، فادخل يا ولدي ـ وفقك الله ـ معي الخلوة، فهل ترى امرأة فيها؟ فدخل فلم يجد امرأة، فازداد محبة على محبة، والله الموفق.

ورأيت في كتاب محيي الدين تلميذ تاج الدين الذاكر المصري، رحمهما الله تعالى: إن رجلاً جاء إلى بعض الأكابر فقال له: يا سيدي، أريد منكم أن تعطوني السر الذي خصكم الله به.

فقال الشيخ: إنك لا تطيق ذلك.

فقال المريد: أطيقه وأقدر عليه.

فامتحنه الشيخ بأمر سقط منه على أم رأسه ـ نسأل الله السلامة ـ وذلك أنه كان عند الشيخ مريد شاب حدث أبوه من الأكابر، فلما قال ذلك المريد: أنا أطيق السر.

قال له الشيخ: إني سأعطيك ـ إن شاء الله ـ السر، فأمره بالمقام عنده، ثم إن الشيخ أمر الشاب الحدث بالاختفاء في مكان بحيث لا يظهر لأحد، ثم أدخل الشيخ خلوته كبشًا فذبحه وجعل على [يديه] وثيابه شيئًا من الدم، فخرج على المريد السابق والسكين في يده والدم يسيل على يده وهو في صورة الغضبان.

فقال المريد: ما عندكم يا سيدي؟

فقال: إن الشاب الفلاني أغضبني، فما ملكت نفسي أن ذبحته، فها هو في ذلك المكان مذبوح ـ يشير إلى الخلوة التي ذبح فيها الكبش ـ فإن أردت السر يا ولدي فاكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، وإن سألني عنه أبوه فإني أقول له: مرض ولدك ومات، فإنه يصدقني ويحصل في المسألة لطف، فعساك يا ولدي [تساعدني][1] على هذا الأمر وتسترني فيه، فإن فعلت فأنا أعطيك السر، إن شاء الله تعالى.

فقال المريد وقد تمعر وجهه، وظهر غيظه، حيث ظن أن الشيخ في قبضته: سأفعل، بكلام يظهر منه الكذب، ففارق الشيخ وذهب سريعًا إلى والد الشاب وأعلمه بالقصة.

---

(١) في (ب): تساعفني.

وقال له: إن الشيخ الكذاب الذي كنتم تعتقدون فيه الخير قتل ولدكم في هذه الساعة، وجعل يرغبني أن أستره، ويطلب مني أن أكتمه عنكم، وإن شككتم في الأمر فاذهبوا معي الساعة، فإنكم تجدون ولدكم يتشحط في دمه.

فقال له الناس: ويحك، فإن سيدي فلانًا لا يفعل هذا، ولعل الأمر شبه عليك.

فقال لهم: اذهبوا معي حتى يظهر صدقي أو كذبي، ففشا قوله في الناس، وسمع به أرباب الدولة فأقبلوا إلى الشيخ سراعًا والمريد أمامهم، حتى وقفوا على خلوة الشيخ فقرعوا الباب.

فخرج الشيخ وقال لهم: ما لكم؟ وأي شيء أقدمكم؟

فقالوا له: ألا تسمع ما يقول هذا؟ يشيرون إلى المريد.

فقال له الشيخ: وأي شيء كان؟

فقال له المريد: الذي كنت ترغبني فيه وتطلب مني كتمانه هو الذي كان.

فقال الشيخ: ما وقع بيني وبينك شيء، وما كلمتك قط.

فقال المريد: الكذب لا ينجيك، قد قتلت ولد الناس.

فترامى الناس على الشيخ من كل ناحية: قتلت ولد الناس، فالآن نقتلك يا عدو الله، تغش الناس بعبادتك وتخدعهم بخلوتك.

فقال الشيخ: سلوه من أين علم بأني قتلته؟

فقال المريد: ألم تخرج عليّ وأثر الدم على يديك وثوبك؟

فقال الشيخ: نعم، وقد ذبحت شاة.

فقال المريد: فلندخل إلى الخلوة إن كنت صادقًا، فدخلوا فوجدوا شاة مذبوحة.

فقال المريد: إنما أخفيت القتيل، وأظهرت هذه الشاة في موضعه؛ لئلا تُقتل به.

فقال الشيخ: أرأيت إن خرج الشاب ولا بأس عليه، أتعلم أنك من الكاذبين الذين لا يفلحون؟

فقال المريد: فأخرجه إن كنت صادقًا، فأرسل الشيخ إلى الفتى فخرج، ولا علم عنده بما وقع، فلما رآه الناس تضرعوا إلى الشيخ، وجعلوا يسبون المريد الكاذب.

وعند ذلك قال له الشيخ: ألست تزعم يا كذاب أنك تطيق السر وتقدر عليه، فما بالك لم تقدر على كتم هذا الأمر الذي لم يكن منه شيء، وإنما صنعنا معك هذا لدعواك أنك تطيق السر، فاذهب فقد أعطيناك السر الذي يليق بأمثالك، فكان ذلك المريد من يومه ذلك موعظة للمعتبرين، ونكالاً للمدعين الكاذبين، نسأل الله بمنه التوفيق.

ووقع لرجل آخر حكاية عجيبة، وذلك أنه كان شيخ ركب الحجيج، وكان من بلاد [العرب][1]، وكان يعتني كثيرًا بلقاء الصالحين ويحبهم، ويفتش على الذي يربح على يديه، فكان هذا دأبه إذا طلع إلى المشرق وإذا رجع، فالتقى بمصر مع بعض الصالحين فأعطاه [أمانة][2] وقال له: الرجل الذي يطلبها منك هو صاحبها، فما زال يطوف على الصالحين الذين يرفعهم واحدًا واحدًا حتى قدم لبلده، ودخل داره وبقي ما شاء الله، فلقيه ذات يوم جاره فقال له: أين الأمانة التي أعطاك فلان بمصر؟ فعلم أن جاره هو صاحب الوقت، فسقط على رجله يقبلها ويقول: يا سيدي، كيف تخفون أنفسكم عليّ، وما تركت صالحًا يشار إليه بالمشرق والمغرب إلا أتيته، وأنتم جيراني وأقرب الناس إليّ؟ ثم طلب منه السر الذي خصه الله به.

فقال له الشيخ: هذا أمر لا تطيقه.

فقال: بل أطيقه يا سيدي.

فقال الشيخ: فإن كنت تطيقه فاعمل بشرطي.

فقال: وما شرطك يا سيدي؟

فقال الشيخ: شرط [هين] لا كبير ضرر عليك فيه، هو أن تحلق لحيتك الطويلة هذه.

فقال له: يا سيدي، كيف يسوغ لي ذلك وبها أُهاب وأُعظم في طريق المشرق؟

---

(١) في (ب): المغرب.

(٢) في (ب): أمارة.

فقال الشيخ: فإن أردت السر فافعل ما أقول لك.

فقال له: يا سيدي، هذا أمر لا أطيقه.

فقال له الشيخ: وما بقي لك عليّ ذنب حيث لم تقبل شرطي.

ففارقه، فلما مات الشيخ وفاتَه ما فاتَه ندم وقال: لو كان عقلي اليوم عندي في زمان الشيخ لفعلت ما قال [الشيخ] وزدت عليه.

وسمعت من بعض الثقات ممن كان يرى النبي ﷺ في اليقظة، وكان يشم رائحة مدينة النبي ﷺ من مدينة فاس.

قال: كنت مع بعض الأولياء ليلة الجمعة في جامع الأندلس [بمحروسة فاس][1] ـ أمنها الله ـ فلما صليت الجمعة وخرجت من الجامع فإذا برجل يقبل يد ذلك الولي ويقول: يا سيدي، إني أحبك لله ﷻ.

فقال له الولي وقد نظر فيه نظرة منكرة: ألم تعلم أن الله يعلم السر وأخفى؟ يعني: فهلّا اكتفيت بعلم الله وحسن جزائه؟

فذهب الولي وجعل الذي ادعى المحبة يبكي مما سمعه من الولي، فتقدمت إليه وقلت له: يا هذا، إنك قد ادعيت أمرًا عظيمًا، ولابد للشيخ أن يختبرك، فكن رجلاً وإلا فهو الفراق بينك وبين الشيخ.

قال: وكان جارًا للشيخ في بعض بساتينه، وكانت شجرة تين للشيخ في الحدود، فكان ذلك المدعي يجنيها كل عام، والشيخ يصبر ويعفو ويصفح ويحسن جواره، فلما ادعى المحبة أسقط عنه كلفة التحمل وقال له: إن الشجرة شجرتي لا شيء لك فيها.

فأنكره المدعي وقال: هي لي.

فقام الشيخ معه على ساق الجد في النزاع والخصام حتى سمعت ذلك المدعي يسب الشيخ ﷺ.

وسمعت هذا الرجل يقول: ذهبت إلى الحج، فلما زرت قبر النبي ﷺ أخذتني حالة

---

(١) سقطت من (أ).

وقلت: يا رسول الله، ما ظننت أني أصل إلى مدينتكم ثم أرجع إلى فاس، فسمعت صوتًا من قبل القبر الشريف وهو يقول: إن كنت محزونًا في هذا القبر فمن جاء منكم فليبق ها هنا، وإن كنت مع أمتي حيثما كانت فارجعوا إلى بلادكم.

قال: فرجعت إلى بلادي، والله تعالى الموفق.

وسمعت الشيخ ﷺ **يقول:** كان بعض الشيوخ المجاذيب يظهر مخالفة؛ ليفر عنه الناس، حتى أنه أراق على ثوبه ذات يوم خمرًا، فجعل الناس يشمون منه رائحة الخمر ويفرون منه، ولم يبق معه إلا وارث سره.

فقال: فعلت هذا عمدًا ليفر عني هؤلاء النمل ـ يشير إلى كثرة الناس الذين كانوا يتبعونه ـ فإنه لا حاجة لي فيهم، والحاجة إنما هي بك وحدك، والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول:** جاء رجل إلى بعض الأولياء وجعل يتأمله ويُصعِّد فيه النظر، حتى تأمله من رأسه إلى رجليه.

فقال له الولي: ما مرادك؟

قال: يا سيدي، هذه غنيمتي أردت أن تنظر ذاتي ذاتك؛ لتشفع فيها غدًا بين يدي الله.

قال الشيخ ﷺ: فربح ذلك الرجل ربحًا كبيرًا.

وكان ﷺ إذا ذكر هذه الحكاية يقول: الناس باقون في هذه الأمة، والحمد لله والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول:** جاء بعض الصادقين إلى من يعتقد فيه الخير، فقال له: إني أحبك في الله ﷻ.

فقال له الشيخ، وكان ذلك عند صلاة الصبح: فإن أردت أن تربح فلا ترجع إلى دارك أبدًا، واذهب إلى بلاد المشرق.

قال: فامتثل ولم يخالف، فربح دنيا وأخرى، والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول:** إن الذين ألفوا في كرامات الأولياء ﷺ وإن نفعوا الناس من

حيث التعريف بالأولياء فقد أضروا بهم كثيرًا من حيث إنهم اقتصروا على ذكر الكرامات، ولم يذكروا شيئًا من الأمور الفانية التي تقع من الأولياء الذين لهم تلك الكرامات، حتى إن الواقف على كلامهم إذا رأى كرامة على كرامة، وتصرفًا على تصرف، وكشفًا على كشف، توهم أن الولي لا يعجز في أمر يطلب فيه، ولا يصدر منه شيء من المخالفات ولو ظاهرًا، فيقع في جهل عظيم؛ لأنه يظن أن الولي موصوف بوصف من أوصاف الربوبية، وهو أنه يفعل ما يشاء ولا يلحقه عجز، وبوصف من أوصاف النبوة وهو العصمة.

والأمر الأول من خصائص الربوبية ولم يعطه الله تعالى لرسله الكرام، فكيف بالأولياء؟!.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

وقال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ اثْنَيْنِ فَأَعْطَانِيهِمَا، وَسَأَلْتُهُ اثْنَيْنِ فَمَنَعَنِيهِمَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فَقَالَ: قَدْ سَبَقَ الْقَضَاءُ ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فَقَالَ: سَبَقَ الْقَضَاءُ»(١).

وقال تعالى في سؤال نوح نجاة ابنه من الغرق: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [التحريم:١٠].

والناس اليوم إذا رأوا وليًّا دعا فلم يستجب له، أو رأوا ولده على غير طريق، أو

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٦)، والترمذي (٣٣٤٤)، وأحمد (١٤٦٨٧) مختصرًا.

امرأته لا تتقي الله، قالوا: ليس بولي؛ إذ لو كان وليًّا لاستجاب الله دعاءه، ولو كان وليًّا لأصلح أهل داره، ويظنون أن الولي يصلح غيره، وهو لا يقدر على إصلاح نفسه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

وأمّا الأمر الثاني وهو العصمة، فهو من خصائص النبوة، والولاية لا تزاحم النبوة.

قال ﷺ: والخير الذي يظهر على يد الولي إنما هو من بركته ﷺ إذ الإيمان الذي هو السبب في ذلك الخير إنما وصل إليه بواسطة النبي ﷺ أمّا ذات الولي فإنها كسائر الذوات، بخلاف الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإنهم جبلوا على العصمة، وفطروا على معرفة الله وتقواه، بحيث إنهم لا يحتاجون إلى شرع يتبعونه، ولا إلى معلم يستفيدون منه، والحق الساكن في ذواتهم، وهو حرف النبوة الذي طبعوا عليه يسلك بهم النهج القويم والطريق المستقيم.

قال ﷺ: ولو أن الناس الذين ألفوا في الكرامات قصدوا إلى شرح حال الولي الذي وقع التأليف فيه، فيذكرون ما وقع له بعد الفتح من الأمور الباقية الصالحة والأمور الفانية؛ ليعلم الناس الأولياء على الحقيقة، فيعلمون أن الولي يدعو تارة فيستجاب له، وتارة لا يستجاب له، ويريد الأمر فتارة يقضى وتارة لا يقضى، كما وقع للأنبياء والرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويريد الولي بأنه تارة تظهر الطاعة على جوارحه، وتارة تظهر المخالفة عليها كسائر الناس.

وإنما امتاز الولي عنهم بأمر واحد، وهو ما خصه الله تعالى به من المعارف ومنحه من الفتوحات، ومع ذلك فالمخالفة إن ظهرت عليه فإنما هي بحسب ما يظهر لنا في الحقيقة؛ لأن المشاهدة التي هي فيها تأبى المخالفة وتمنع من المعصية منعًا لا ينتهي إلى حد العصمة حتى تزاحم الولاية النبوة، فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء، عرضي في الأولياء، فيمكن زواله في الأولياء ولا يمكن زواله في الأنبياء، وسره ما سبق وهو أن خير الأنبياء من ذواتهم، وخير الأولياء من غير ذواتهم، فعصمة الأنبياء ذاتية، وعصمة الأولياء عرضية، فإن العارف الكامل إذا وقعت منه مخالفة فهي صورية لا حقيقية قصد بها امتحان من شاهدها واختاره، ولذلك أسرار، فنطلب من الله تعالى أن يوفقنا للإيمان بأوليائه، كما وفقنا للإيمان بأنبيائه، عليهم الصلاة والسلام.

قال ﷺ: ومن علم سيرة النبي ﷺ في أكله وشربه، ونومه ويقظته، وجميع أحواله في بيته، وعلم سيرته في حروبه وغزواته، وكيف يدال له مرة، ويدال عليه أخرى، وكيف يطلب منه أناس قومًا من أصحابه، ثم يذهبون ويغدرون بهم، كما في غزوة الرجيع وغزوة بئر معونة، وعلم ما وقع في قصة الحديبية وغيرها، ولكل ذلك أسرار ربانية أطلع الله تعالى عليها نبينا ﷺ هانت عليه معرفة الأولياء، ولا يستكثر ما يراه على ظاهرهم من الأمور الفانية والأوصاف البشرية.

فعلى العاقل الذي يحب الخير ويحب أهله، أن يكثر من مطالعة سيرته ﷺ فإنه يهديه ذلك إلى معرفة الأولياء العارفين، ولا يشكل عليه شيء من أمورهم، وهذا القدر هو الذي يمكن أن يبينه القلم، والعاقل اللبيب تكفيه الإشارة، والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الرجل قد يسمع بالولي في بلاد بعيدة، فيصوره في نفسه على صورة تطابق الكرامات التي تنقل عنه، فإذا وجده على غير تلك الصورة التي سبقت في ذهنه وقع له الشك في كونه هو ذلك الولي.

ثم ذكر ﷺ أن رجلاً من الجزائر سمع بولي في فاس، ونقلت إليه عنه كرامات كثيرة، فصوره في نفسه في صورة شيخ كبير له هيبة [كبيرة] عظيمة، فارتحل إليه لينال من أسراره، فلما وصل مدينة فاس سأل عن دار ذلك الولي، فدل عليها وكان يظن أن لذلك الولي بوابين يقفون على باب دراه، فدق الباب فخرج الولي فقال القاصد: يا سيدي، أريد منكم أن تشاوروا على سيدي الشيخ، وظن أن الخارج إليه بواب.

فقال له الولي: الذي قصدته من بلادك، وسرت إليه مسيرة شهر أو أكثر هو أنا لا غير.

فقال: يا سيدي، أنا رجل غريب، وجئت إلى الشيخ بشوق عظيم فدلني عليه ـ يرحمك الله ـ وذلك أنه نظر إلى الولي فلم يجد عليه شارة، ولا صورة عظيمة.

فقال له الولي: يا مسكين، أنا هو الذي تريد.

فقال القاصد: أنا أقول لكم: إني غريب، وطلبت منكم أن تدلوني على الشيخ، وأنتم تسخرون بي.

فقال له الولي: الله بيننا إن سخرت بكم.

فقال له القاصد: الله حسبك، وانصرف حيث وجده على غير الصورة التي صورها في فكره.

* **قلت**: وكم واحد سقط من هذا السبب؟! فإنه إذا طالع الكتب المؤلفة في كرامات الأولياء صور الولي على نحو ما سمع في تلك الكتب، فإذا عرض تلك الصورة على أولياء زمانه شك فيهم أجمعين؛ لما يشاهد فيهم من الأوصاف التي لا تكتب في الكتب، ولو أنه شاهد الأولياء الذين دونت كراماتهم قبل تدوينها لوجد فيهم من الأوصاف ما أنكره على أهل زمانه.

وقد يبلغ الجهل بأقوام إلى إنكار الولاية عن كل موجود من أهل زمانهم؛ لما استحكم في عقولهم من حصر الولاية وتحقيقها بالضوابط، فإذا نزل تلك الضوابط على موجود من أهل زمانه وجدها لا تطابقه، فينفي الولاية عنه، ويصير حاصله أنه يؤمن بولي كلي لا وجود له في الخارج، ولم يدر أن الولاية هي مجرد اصطفاء من الله تعالى لعبده، ولا يقدر على ضبطها مخلوق من المخلوقات.

وقد وقع لبعض الفقهاء من أهل العصر معنا حكاية في هذا المعنى، وذلك أنه أتاني ببعض كتب القوم، وهو يذكر فيه شروط الولاية وضوابطها، وكيف ينبغي أن يكون الولي الذي يشيخ.

فقال لي: أردت منكم أن تسمعوا مني ما ذكره في هذا الكتاب في الولاية، وشروط الولي، وقد فهمت إشارته، وأنه أراد الإنكار على بعض من يشار إليه بالولاية، فأراد أن يقرأ عليّ ما في ذلك الكتاب، فإذا سلمته ألزمني بما في باطنه من الإنكار والاعتراض على أولياء الله ﷻ.

فقلت له: لا تقرأ عليّ ما في الكتاب حتى تجيبني عن سؤال، فإذا أجبتني عنه فاقرأ ما شئت، أخبرني هل مؤلف هذا الكتاب أحاط بخزائن الله وعطائه وملكه العظيم، أو هو كما قال الخضر لموسى، عليهما السلام: ما نقص علمي، وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور بنقرته من البحر، فإن قلتم: أحاط بملك الله وخزائنه فقولوه حتى أسمعه منكم.

فقال الفقيه: معاذ الله أن نقول ذلك!.

وإن قلتم: هو كما قال الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ فالسكوت خير له، فإن مثاله كنملة لها غوير صغير تأوي إليه، وتسكن فيه، فخرجت منه فوجدت حبة قمح ففرحت بها وأدخلتها إلى مسكنها، وحملها الفرح على أن جعلت تصيح وتنادي: يا جميع النمل، لا مأوى إلا عندي، ولا خير إلا ما أنا فيه.

فقلت له: إنها تتعب حلقها، وتوجع رأسها بلا فائدة، فإن من علمه من علم الله كنقرة العصفور من البحر، كيف يصح منه أن يقطع على المولى الكريم ويقول: إنه لا يرحم هذا، ولا يفتح على هذا، وليس هذا من الأولياء، وضوابط الولاية لا تصدق على هذا ولا تطابقه، وإذا كان الله تعالى يرحم العبد وهو على الكفر فيعطيه الإيمان ثم يفتح عليه من ساعته، فأيّ [فائدة][1] تبقى للولاية حينئذ؟!.

وإذا قيل لك عن السلطان الحادث العاجز المولى على الناس: إنه أغنى عبده الفلاني، ومنع الحر الفلاني، وخلع على اليهودي الفلاني كذا وكذا، فإنك لا تستبعده؛ لأنك تعتقد أنه لا منازع له في ملكه، وإذا كنت تعتقد هذا في الملك الحادث فكيف تمنع الملك القديم ﷻ من ذلك بضوابطك وقواعدك، وإنك تعتقد أنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وأنه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١]؟!.

فقال الفقيه: هذا الذي قلتم صواب، والله إنه لحق، وطوى كتابه وقال: إن قلنا: إن هؤلاء المؤلفين أحاطوا بعلم الله فبئس ما قلنا، وإن قلنا: إنهم لم يحيطوا بالنزر منه، فلا ينبغي لنا أن نحجر على الله بقواعدهم، فلو سكتوا لكان خيرًا لهم، والمهدي من هداه الله، وكم من مهدي هدي قبل أن تكون هذه القواعد والضوابط، والله الموفق.

ووقعت لي مناظرة أخرى مع بعض الفقراء المنتسبين إلى خدمة الصالحين ﷺ وذلك أني كنت أنا وهو نختلف إلى بعض الأولياء كثيرًا، فلما مات ذلك الولي جعلت أختلف إلى ولي آخر، وبقي هو في زاوية الأول، فلما لقيني ذات يوم فقال: أردت نصيحتك يا فلان، فقلت: حبًّا وكرامة، وعلى الرأس والعين، وقد فهمت مراده.

---

(١) في (ب): قاعدة.

فقال: إنك كنت أولاً مع سيدي فلان، وكانت ولايته لا يشك فيها اثنان، وقد ذهبت اليوم إلى غيره، فأنت بمثابة من ترك الجواهر واليواقيت واستبدلها بالأحجار.

فقلت: أنت تتكلم عن بصيرة أو عن غير بصيرة، فإن كان كلامك عن بصيرة فاذكرها لنا حتى نذكر لك ما عندنا، وإن كان كلامك عن غير بصيرة فاذكر دليله.

فقال لي: ظاهر مثل الشمس.

فقلتُ له: فإن قال لك قائل: إن كلامك هذا يبعدك من الله، ويقربك من الشيطان.

فقلتَ له: فما دليلك؟

فقال لك: ظاهر مثل الشمس، فبم تجيبه؟

فسكت ولم يدر ما يقول.

ثم قلت له: إني فكرت في دليلك، وجلت بخاطري في برهانك فلم أجد لك دليلاً إلا أمرًا واحدًا.

فقال لي: وما هو؟

فقلت: إنك تزعم أنك شريك لله في ملكه بحيث لا يعطي شيئًا ولا يفتح على عبد إلا بإذنك، والفتح على الرجل الذي تنكر عليه لم يقع بإذنك، ولا يقدر الله تعالى على إعطائه إلا بإذنك، فمن هذا الطريق تهيأ لك الإنكار على عباد الله الصالحين، ولو كنت تعتقد أن الله لا شريك له في ملكه ولا منازع له في عطائه لسلمت لعباد الله ما أعطاهم ربهم ﷻ من الخيرات.

فقال الفقيه: أنا تائب إلى الله تعالى، أنا تائب إلى الله تعالى، أنا تائب إلى الله تعالى، الحق ما تقول، والله ما نحن إلا فضوليون، وما كنا ننكر إلا بالباطل، والله الموفق.

واعلم ـ وفقك الله ـ أن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب، ولا يتقيد بمذهب من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة، وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين، ولا يخرج عن مشاهدة الحق ـ جل جلاله ـ لحظة، وحينئذ فهو العارف بمراد النبي ﷺ وبمراد الحق ـ جل جلاله ـ في أحكامه

التكليفية وغيرها، وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه؛ لأنه أقرب إلى الحق من غير المفتوح عليه، وحينئذ فكيف يسوغ الإنكار على من هذه صفته، ويقال: إنه خالف مذهب فلان في كذا؟!.

إذا سمعت هذا فمن أراد أن ينكر على الولي المفتوح عليه لا يخلو إمّا أن يكون جاهلاً بالشريعة كما هو الواقع غالبًا من أهل الإنكار، وهذا لا يليق به الإنكار، والأعمى لا ينكر على البصير أبدًا، فاشتغال هذا بزوال جهله أولى به، وإمّا أن يكون عالمًا بمذهب من مذاهبها، جاهلاً بغيره، وهذا لا يصح منه إنكار إلا إن كان يعتقد أن الحق مقصور على مذهبه، ولا يتجاوزه لغيره، وهذا الاعتقاد لم يصر إليه أحد من [المصوبة] ولا من المخطئة.

أمّا [المصوبة] [1]: فإنهم يعتقدون الحق في كل مذهب، فهي كلها عندهم على صواب، وحكم الله عندهم يتعدد بحسب ظن المجتهد، فمن ظن الحرمة في نازلة فهي حكم الله في حقه، ومن ظن الحلية فيها بعينها فهي حكم الله في حقه.

وأمّا المخطئة: فحكم الله عندهم واحد لا يتعدد، ومصيبه واحد، ولكنهم لا يحصرونه في مذهب بعينه، بل يكون الحق في نازلة هو ما ذهب إليه إمام، وفي نازلة أخرى ما ذهب إليه غيره، فاشتغال هذا المنكر بزوال هذا الاعتقاد الفاسد أولى به، وإمّا أن يكون عالمًا بالمذاهب الأربعة، وهذا لا يتأتى منه الإنكار أيضًا إلا إذا كان يعتقد نفي الحق عن غيرها من مذاهب العلماء، كمذهب الثوري، والأوزاعي، وعطاء، وابن جريج، وعكرمة، ومجاهد، ومعمر، وعبد الرزاق، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وطاوس، والنخعي، وقتادة، وغيرهم من التابعين وأتباعهم إلى مذاهب الصحابة ﷺ أجمعين.

وهذا اعتقاد فاسد، فاشتغاله بدوائه أولى من اشتغاله بالإنكار على أولياء الله المفتوح عليهم.

وإذا وصلت إلى هنا علمت أنه لا يسوغ الإنكار على الحقيقة إلا ممن أحاط بالشريعة، ولا يحيط بها إلا النبي ﷺ والكمّل من ورثته، كالأغواث في كل زمان ﷺ أمّا

---

(١) في (ب): المتصوفة.

غيرهم فسكوتهم خير لهم لو كانوا يعلمون، وكلامنا في الإنكار على أهل الحق من أهل الفتح، وأمّا أهل الظلام والضلال فلا تخفى أحوالهم على من مارسهم.

وقد استأذن بعض الناس شيخه في الإنكار على الأولياء أهل الحق من أهل الفتح، وقال له: يا سيدي، لا أنكر عليهم إلا بميزان الشريعة، فمن وجدته مستقيمًا سلمت له، ومن وجدته مائلاً أنكرت عليه.

فقال له شيخه: أخاف ألّا تكون عندك الصنوج كلها التي يوزن بها، وإذا كان عندك بعض الصنوج دون بعض فلا يصح ميزانك، يشير إلى ما سبق من كونه ينكر وهو جاهل.

وقد حضرت لبعض الناس، وكانت له فطانة وحذاقة، فسمع سائلاً يسأل وليًّا مفتوحًا عليه عن السورة التي بعد أم القرآن إذا نسيها المصلي وترتب السجود القبلي عليه، ثم نسيه فلم يفعله حتى سلم وطال الحال، هل تبطل الصلاة بترك السجود القبلي؟ بناء على أن في السورة ثلاث سنن، أو لا بناء على أنه ليس فيها ثلاث سنن؟ وقد ذهب إلى الأول الشيخ الحطاب وغيره، وإلى الثاني شراح «الرسالة» وطلب السائل من هذا الولي المفتوح عليه أن يعين له الحق عند الله تعالى.

فأجابه الولي سريعًا: الحق عند الله تعالى هو أن السورة لا يوجب نسيانها سجودًا أصلاً، ومن سجد لها بطلت صلاته، وكان الولي المفتوح عليه عاميًّا أميًّا، وكان السائل يعرفه ويعرف ارتقاء درجته في الفتح، فلما سمع جوابه علم أنه الحق الذي لا ريب فيه، وأمّا الذي له حذاقة وفطانة فدخله شك وارتياب.

فقال للسائل بعد أن قام عن الولي: إن هذا الرجل ـ يعني: الولي ـ جاهل لا يعرف شيئًا، انظر كيف جهل حكم الله في هذه المسألة الظاهرة.

وقال: إن تارك السورة لا سجود عليه، وقد عدها ابن رشد في السنن المؤكدة كما عدّ فيها الجهر والسر، فأجابه السائل بأن الولي المفتوح عليه لا يتقيد بمذهب، بل يدور مع الحق أينما دار.

فقال الذي له حذاقة وكان من طلبة العلم: نحن لا نتجاوز أقوال إمامنا مالك.

فأجابه السائل بأن هذا الذي قاله الولي المفتوح عليه قد رواه أشهب عن مالك كما

نقله في «التوضيح» فروى عن الإمام أن السورة مستحبة وليست بسنة، ثم هو مذهب الشافعي ﷺ فعنده أن السورة من الهيئات التحسينية وليست من السنن، ومن سجد لها بطلت صلاته، ثم سؤالنا للولي إنما كان عن تعيين الحق من غير تقييد، ولم يكن عن خصوص المشهور من مذهب مالك، وقد عين ما سألناه عنه ووافق ذلك رواية عن مالك، وهي مذهب الشافعي ﷺ فأيّ تبعة بقيت على الولي في جوابه؟ فلما قال السائل هذا القول وسمعه الذي له حذاقة انقطع ولم يدر ما يقول.

* **قلت**: وهذه طريقة المنكرين وعادتهم لا تجد معهم إلا التقصير التام.

وقد وقع لبعض أكابر الفقهاء من أشياخنا ﷺ كلام معي في هذا المعنى.

فقال لي يومًا: يا فلان، إني أردت نصيحتك لمحبتي فيك وتمام مودتي إليك.

فقلت: يا سيدي، حبًّا وكرامة وعلى الرأس والعين.

فقال لي ﷺ: إن الناس على طرف وأنت وحدك على طرف في رجل علمت كشفه وولايته الناس فيه على الانتقاد وأنت على الاعتقاد، ومن المحال أن تكون وحدك على الحق، وذكر كلامًا من هذا المعنى هذه زبدته.

فقلت: يا سيدي، من تمام نصيحتك لي أن تجيبني عما أذكره لك، فإن أجبتني عنه تمت النصيحة، وكان أجرك على الله.

فقال لي ﷺ: اذكر ما شئت.

فقلت: يا سيدي، ألقيتم الرجل وسمعتم كلامه، وتباحثتم معه في أمر من الأمور حتى ظهر لكم ما عليه الناس فيه.

فقال لي: ما لقيته قط، ولا رأيته أصلاً.

فقلت له وقد طرحت الحياء والحشمة لما بيني وبينه من الألفة والمودة: يا سيدي، ما ظهر لي فيكم إلا أنكم عكستم الصواب، وطلبتم اليقين في باب الظن الذي لا يمكن فيه اليقين، واكتفيتم في باب اليقين بالظن، بل بالشك، بل بالإفك والأباطيل.

فقال لي ﷺ: فسر لي مرادك بهذا الكلام.

فقلت له: إنكم إذا أخذتم في تدريس الفقه، ونقل لكم كلام عن «المدونة» أو «تبصرة اللخمي» أو «بيان ابن رشد» أو «جواهر ابن شاس» ونحوها من دواوين الفقه، وأمكنكم مراجعة هذه الأصول فإنكم لا تثقون بنقل الواسطة حتى تنظروها بأنفسكم، ولو كانت الواسطة مثل ابن مرزوق والحطاب و«التوضيح» ونحوهم، فهذا باب الظن، وكأنكم تطلبون فيه اليقين حتى لم تكتفوا فيه بنقل العدول الثقات الأثبات حتى باشرتم الأمر بأنفسكم، ولا يمكنكم اليقين فيه أبدًا، وإنما عرضتم ظنًّا أقوى بظن أضعف منه، فإنه نقل الواسطة السابقة أقرب إلى الصواب من جهة قرب زمانها إلى مؤلفي الكتب الستة، فإنهم أقرب إليهم منا بلا ريب، ومن جهة أن النسخ التي عند الواسطة من هذه الأصول مروية بطريق من طرق الروايات، وأمّا نحن فلا رواية عندنا فيها، ولا نسخ صحيحة منها.

فمن الجائز أن تكون نسختكم منها زادت أو نقصت، فبأيّ يقين ترد نقل الحطاب عنها مع وجود هذين الأمرين فيه، وفقدهما فيك، وأمّا أنكم اكتفيتم بالظن في باب اليقين الذي يمكن فيه فإن هذا الرجل الذي بلغك عنه ما بلغك موجود حي حاضر معك في المدينة، ليس بينك وبينه مسافة، ومعرفته سعادة لا شقاء بعدها لمن وفقه الله لمحبته وإلقاء القياد إليه، وقد أمكنك الوصول إليه حتى تعتقد فتسعد وتربح، أو تنتقد فترجع، ويحصل لك اليقين بأحد الأمرين، وتزول ظلمة الشك من قلبك، ثم إنك قنعت في هذا الأمر الرابح والخير الراجح الذي نفعه محقق وصاحبه موفق بنقل الفسقة والكذبة، وكان من عادتك أنك لا تقنع في باب الظن والنفع القليل بنقل الثقات الأثبات حتى تباشر الأمر بنفسك، فهلّا جريت على ذلك في هذا الباب الذي هو باب اليقين والنفع الذي هو سعادة محضة، أليس هذا منكم ـ رضي الله عنكم ـ عكسًا للصواب؟

فقال ﷺ: قطعتني بالحجة، والله لا يمكنني الجواب عن هذا أبدًا، واشهد عليّ بأني تائب إلى الله ﷻ.

ثم قلت للشيخ المذكور: إن كان ولابد لكم من التقليد فقلدني لأمرين:

أحدهما: إنك تعلم بصيرتي في الأشياء.

ثانيهما: إنك تعلم أني خالطت الرجل المذكور سنين كثيرة حتى علمت منه ما لم

يعلمه غيري، وأمّا هؤلاء الكذبة الفسقة فأكثرهم لم يلقه مثلكم، وإنما اعتمادهم على التسامع الذي لا أصل له، وسببه الحرمان والخذلان، نسأل الله التوفيق بمنه وفضله وكرمه.

فقال ﷺ: ما بقي مما تقول شيء آخر.

ثم لقيني فقيه آخر من أشياخ الفقيه المتقدم فقال لي: ذكر لي عنكم فلان حجة قاطعة لكل منازع، ثم التفت إلى الفقيه المذكور فقال: ألم تخبرني أن فلانًا قال لك كيت وكيت؟

فقال: نعم.

ثم قالا معًا: بهذا الكلام قطعت ظهرنا.

* **قلت:** وهذان الفقيهان هما رأس الطبقة من أهل العصر، بحيث إنهما لا يجاريهما أحد في وقتهما، وأمّا من دونهما من أهل الإنكار فأكثرهم يعتمدون على التسامع الذي لا أصل له كما سبق، وأكيسهم الذي يعتمد في إنكاره على قوله: كنا نعرف سيدي فلانًا، ولم يكن هكذا؛ يعني: إن الرجل المنكر عليه لم يكن كسيدي فلان، ولم يدر أن الزهر ألوان والنخل ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقد دخلت مع الشيخ ﷺ إلى بستان في فصل الربيع، فنظر إلى اختلاف أزهاره وأنواره ساعة، ثم رفع رأسه إليّ وقال: من أراد أن يعرف اختلاف الأولياء وتباينهم في المقامات والأحوال، مع كونهم على هدى وصواب وحلاوتهم في قلوب الناس، فلينظر إلى اختلاف هذه الأنوار والأزهار مع حلاوتها في القلوب.

فإن كان قوله: إن سيدي فلانًا الذي عرفناه لم يكن هكذا حصرًا لرحمة الله في الولي الذي عرفه فقد حجر واسعًا، ولما قال الأعرابي الذي بال في المسجد: اللهم ارحمني وارحم محمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، قال له النبي ﷺ: «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[1].

وإن كان قوله ذلك ظنًّا منه أن كل مرحوم لا يكون إلا مثل الولي الذي عرفه [فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٠).

حجر واسعًا][1] فقد سبق أنهم ﷺ على أصناف شتى، وأيضًا فهو مشترك الإلزام، فإن هذا الاعتراض لازم في الولي الذي عرفه، فإنه لم يكن مثل الولي الذي كان قبله، فإن اعترض على الثالث بأنه ليس مثل الثاني اعترض على الثاني بأنه ليس مثل الأول الذي كان قبله.

وإنما أطلت الكلام في هذا الباب، وذكرت هذه المناظرات التي وقعت لنا مع الفقهاء ﷺ حرصًا على وصول الخير إلى طائفة الفقهاء وطلبة العلم، ومحبة فيهم، ونصيحة لهم، فإنهم ابتلوا بالإنكار على السادات الأبرار، الأخيار الأطهار، في سائر القرون والأعصار، وفي جميع البوادي والقرى والأمصار، وإنكارهم لا يخرج عن هذا الذي ذكرناه في هذا الباب، فمن كان منهم منصفًا وتأمل ما سطرناه فيه رجع وظهر له الحق، ولاح له وجه الصواب.

وكثيرًا ما كنت أتعرض لمناظرة الفقهاء في هذا الباب ظنًّا مني أنهم يعتمدون في إنكارهم على أمور صحيحة، فلما اختبرتهم وجدت الأمر على ما وصفت لك، والله الهادي إلى الصواب لا رب غيره، ولا خير إلا خيره ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠].

وسمعته ﷺ يقول: لا ينبغي أن ينظر إلى ظاهر الولي ويوزن عليه، فيخسر الوازن دنيا وأخرى، فإن في باطن الولي العجائب والغرائب، وما مثاله إلا كخيشة صوف في وسطها خيشة حرير لا تظهر إلا في الآخرة، وغير الولي بالعكس خيشة حرير في وسطها خيشة من صوف، والعياذ بالله.

ولنثبت أسبابًا كثيرة في ظهور المخالفات على ظاهر الولي سمعناها من الشيخ ﷺ مفرقة، فنجمعها هنا فنقول:

سمعته ﷺ يقول: كان لبعض الأولياء الصديقين مريد صادق، فكان يحبه كثيرًا، وأطلعه الله على أسرار ولايته حتى أفرط في محبته، وكاد يتجاوز بشيخه إلى مقام النبوة، فأظهر الله على الشيخ صورة معصية الزنا رحمة بالمريد المذكور، فلما رآه رجع عن ذلك الإفراط في الاعتقاد، ونزل شيخه منزلته ففتح الله حينئذ على المريد.

قال ﷺ: ولو دام على اعتقاده الأول لكان من جملة الكافرين المارقين، نسأل الله السلامة.

---

(١) سقطت من (أ).

قال ﷺ: وهذا أحد الأسرار في الأمور التي كانت تظهر على النبي ﷺ من نحو قوله في قضية تأبير النخل: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَتْ**»(١) ثم تركوا التأبير، فجاءت الثمر شيصًا؛ أي: غير صالحة.

ومن نحو قوله ﷺ: «رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّا نَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ» ثم خرج ﷺ مع أصحابه الكرام ﷺ فصدهم المشركون، ولم يدخلوا إلا في عام آخر، ونحو ذلك.

ففعل الله ﷻ هذه الأمور مع نبيه الكريم؛ لئلا يعتقد الصحابة فيه الألوهية، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] ونحو ذلك، فإن المقصود من ذلك كله هو الجمع على الله ﷻ والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الولي الكامل يتلون على قلوب القاصدين ونياتهم، فمن صفت نيته رآه في عين الكمال، وظهر له منه الخوارق وما يسره، ومن خبثت نيته كان على الضد من ذلك.

وفي الحقيقة ما ظهر لكل واحد إلا ما في باطنه من حسن وقبح، والولي بمنزلة المرآة التي تنجلي فيها الصور الحسنة والصور القبيحة، فمن ظهر له من ولي كمال ودلالة على الله فليحمد الله - تبارك وتعالى - ومن ظهر له غير ذلك فليرجع على نفسه.

قال ﷺ: وإذا أراد الله شقاوة قوم وعدم انتفاعهم بالولي سخرهم الحق فيما هم فيه من قبح ومخالفة، فيظنون أنه على شاكلتهم، وليس كذلك حتى أنه يتصور في طور الولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر وهو يشرب معهم، فيظنون أنه شارب الخمر، وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت، وفي الحقيقة لا شيء وإنما هو ظل ذاته تحرك فيما تحركوا فيه مثل الصورة التي تظهر في المرآة، فإنك إذا أخذت في الكلام

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٦١٧، رقم ١٢٧٩)، وعبد الرزاق (٨/ ١٣٥، رقم ١٤٦٢٠)، والبخاري (٢/ ٧٦٨، رقم ٢٠٩٠)، ومسلم (٣/ ١١٧٢، رقم ١٥٤٣)، وأبو داود (٣/ ٢٦٨، رقم ٣٤٣٣).
وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٦، رقم ٤٥٠٢)، وأبو يعلى (١٠/ ١٧٢، رقم ٥٧٩٧)، وابن الجارود (ص ١٥٩، رقم ٦٢٨)، والطبراني (١٢/ ٢٨٤، رقم ١٣١٣٠).

تكلمت، وإذا أخذت في الأكل أكلت، وإذا أخذت في الشرب شربت، وإذا أخذت في الضحك ضحكت، وإذا أخذت في الحركة تحركت، وتحاكيك في كل ما يصدر منك، وفي الحقيقة لم يصدر منها أكل ولا غيره؛ لأنها ظل ذاتك وليست الحقيقة، فإذا أراد الله شقاوة قوم ظهر الولي معهم بظل ذاته، وجعل يرتكب ما يرتكبون، والله الموفق.

وسمعته ﷺ يقول: إن الولي إنما يعتبر من القاصدين إليه باطنهم، وأمّا ظاهرهم فلا عبرة به عنده.

والقاصدون على أربعة أقسام:

ـ قسم يستوي ظاهره وباطنه في الاعتقاد، وهذا أسعدهم.

ـ وقسم يستوي ظاهره وباطنه في الانتقاد، وهذا أبعدهم.

ـ وقسم ظاهره معتقد وباطنه منتقد، وهذا أضر الأقسام على الولي، كالمنافق بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه إذا نظر إلى ظاهره ويريد نفعه منعه الباطن، وإذا أراد البعد منه حيث ينظر إلى باطنه أطمعه ظاهره.

قال ﷺ: والولي يسمع كلام الباطن كما يسمع كلام الظاهر، فيكون هذا القسم عنده بمثابة من جلس إليه رجلان أحدهما في جوف الآخر، فيقول الرجل الظاهر: أنت سيدي، وأنا [عبدك] وأنا عند أمرك ونهيك وعلى طاعتك وتسييرك، ويقول الذي في الجوف: أنت لست بولي، والناس أخطأوا فيما يظنون فيك، وأنا على شك في أمرك وفيما يقول الناس فيك ونحو هذا.

فالجاهل الذي لا يعرف الباطن يستوي في نظره هذا القسم والقسم الأول، فإذا رأى القسم الأول ربح وحصل له الخير الكثير من الولي، قال في نفسه: وَلِمَ لَمْ يربح القسم الثالث؟ مع أنه يتأدب ويخدم بنفسه، ويقف عند الأمر والنهي كالأول، فيقول في نفسه: لعل الخلل والنقصان من الولي. فيكون هذا بابًا واسعًا للكلام في الأشياخ ودخول الوسوسة فيهم.

ـ وأمّا القسم الرابع وهو ما يكون باطنه معتقدًا وظاهره منتقدًا، فلا يتصور إلا مع الحسد، نسأل الله السلامة والعافية بمنه وكرمه آمين.

ـ **وسألته** ﷺ يومًا فقلت له: هذه العلوم التي تبرز منكم وتتكلمون بها، هل تحتاجون فيها إلى قصد واستعمال أم لا؟

فقال ﷺ: إن الولي الكامل غائب في مشاهدة الحق ﷻ لا يحجب عنه طرفة عين، وظاهره مع الخلق، فيستعمل الحق ﷻ ظاهره مع القاصدين بحسب ما سبق لهم في القسمة، فمن قسم له منه رحمة أطلق عليه ذلك الظاهر وأنطقه بالعلوم وأظهر له ما لا يكيف من الخيرات، ومن أراد به سوء ولم يقسم له على يده شيئًا أمسكه عنه وحجبه عن النطق بالمعارف.

قال ﷺ: وما مثلت الولي مع القاصدين إلا كحجر بني إسرائيل، فإذا كان بين يدي أولياء الله تعالى انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وإذا كان بين أعدائه تعالى لا تخرج منه ولا قطرة واحدة.

* **قلت**: وقد شاهدت هذا المعنى في الشيخ ﷺ مرارًا، فإذا حضر بين يديه بعض من لا يعتقده لا تخرج منه ولا فائدة واحدة، ولا يقدر على التكلم بشيء من العلوم اللدنية والمعارف الربانية حتى يقوم ذلك الشخص، ويوصينا ويقول: إذا حضر مثل هذا الرجل فلا تسألوني عن شيء حتى يقوم، وكنا قبل الوصية جاهلين بهذا الأمر، فنسأل الشيخ ونريد أن نستخرج منه النفائس والأسرار الربانية؛ كي يسمعها الرجل الحاضر فيتوب، فإذا سألناه ﷺ حينئذ وجدناه كأنه رجل آخر لا نعرفه ولا يعرفنا، وكأن العلوم التي تبدو منه لم تكن له على بال أبدًا، حتى ذكر لنا السبب ففهمنا السر، والحمد لله رب العالمين.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي وهو ليس بعاص، وإنما روحه حجبت ذاته فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية؛ لأنها إذا أكلت حرامًا مثلاً فإنها بمجرد جعلها في فيها فإنها ترميه إلى حيث شاءت، وسبب هذه المعصية الظاهرية شقاوة الحاضرين، والعياذ بالله تعالى.

فإذا رأيت الولي الكبير ظهرت عليه كرامة فاشهد للحاضرين بأن الله تعالى أراد بهم الخير، أو معصية فاشهد بشقاوتهم، وكما أن أرواحهم هي التي تتولى كراماتهم، كذلك هي التي تتولى معاصيهم الظاهرة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الولي قد يغلب عليه الشهود فيخاف على ذاته الترابية من

التلاشي، فيستعمل أمورًا ترده إلى حسه، وإن كان فيها ما يعاب عليه من باب: «إذا التقى ضرران ارتكب أخفهما» فإذا رآه شخص ارتكب ذلك الأمر ولا يعلم الوجه الذي ارتكبه لأجله ربما بادر إلى الإنكار عليه فيحرم بركته.

وقد تقرر في الشرع ـ أي: في الشريعة المطهرة ـ أن العضو إذا أصابته الأكلة وخيف على الذات منها فإنه يباح قطعه؛ لتسلم الذات مع أن العضو معصوم، ولكنه من باب: «إذا التقى ضرران ارتكب أخفهما» وكذلك الشخص إذا خاف على نفسه الهلاك من شدة الجوع فإنه يباح له أكل الميتة حتى يشبع ويتزود منها، وغير ذلك من الفروع الداخلة تحت هذه القاعدة، وهذه التي ترد ذات الولي إلى حسها هي المعتادة لها قبل الفتح، وكل ذات وما اعتادت، فافهم بالإشارة، ففي التفصيل والتصريح وحشة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن غير الولي إذا انكشفت عورته نفرت منه الملائكة الكرام؛ لأن الحياء يغلب عليهم، والمراد بالعورة العورة الحسية وهي ظاهرة، والعورة المعنوية التي تكون بذكر المجون وألفاظ السفه.

وأمّا الولي فإنها لا تنفر منه إذا وقع له ذلك؛ لأنه إنما يفعله لغرض صحيح فيترك ستر عورته لما هو أولى منه؛ لأن أقوى المصلحتين يجب ارتكابه ويؤجر على ستر عورته وإن لم يفعله؛ لأنه ما منعه من فعله إلا ما هو أقوى منه، ولولا ذلك الأقوى لفعله، فكأنه فعلهما جميعًا فيؤجر عليهما معًا.

فقلت: وما هذا الأقوى الذي ترك لأجله ستر عورته، أو تكلم لأجله بشيء من ألفاظ المجون؟

فقال ﷺ: كل ما يردّ الذات إلى عالمها الحسي ويرد عليها عقلها، فإذا كان كشف العورة يوجب ذلك لشخص ارتكبه، وإذا كان التكلم بالمجون وألفاظ السفه يوجب ذلك لشخص آخر ارتكبه أيضًا، وإذا كان غيره من الأمور الفانية يوجبه لشخص ثالث ارتكبه... وهلم جرًّا.

فقلت: ولمَ تحتاج الذات إلى ما يردها إلى عالمها الحسي؟ وهل تغيب عنه؟

فقال ﷺ: نعم تغيب عنه.

ثم ضرب مثلاً لتحقيق الغيبة فقال: كرجل له ستمائة قنطار، وقد كبر وعمي وانقطع منه التدبير بالكلية، ومع ذلك فله أولاد لا يحصون، وكلهم صغار لا يقدرون على شيء، ثم أرسلها بقصد التجر مع أناس ركبوا البحر في زمن هوله، وكثرة عطبه، وقلة السلامة منه، ولم يترك لنفسه ولا لأولاده فلسًا واحدًا، فلا تسأل عن عقل هذا الرجل كيف يكون، فإنه يذهب مع أهل السفينة وينقطع عن الذات بالكلية، وحينئذ فتحصل له آفتان:

الأولى منهما: انسداد أفواه العروق التي يكون غذاء الجسم منها؛ بسبب احتراقها بالحرارة التي هاجت حين اشتغال الفكر بأمر السفينة.

* **قلت**: وقد شاهدت رجلاً من حملة القرآن العزيز ومن أهل العلم دوخل في [عقله][1]، نسأل الله السلامة من طلب التدبير والكيمياء والكنوز، وسكن ذلك في عقله واشتغل به فكره اليوم على اليوم، فجعل لونه يصفر، وقل جلوسه مع الناس، وصار لا يأكل من الطعام إلا ما قلّ، ثم لم يزل أمره في زيادة إلى أن مات سريعًا، نسأل الله السلامة.

وسر ذلك ما أشار إليه الشيخ ﷺ من انسداد أفواه عروق غذاء الجسم، فيتضرر الجسم بذلك، وتزول نضارته ونعومته، ويحصل فيه اصفرار وذبول إلى أن يتلاشى ويهلك.

والآفة الثانية: إن العقل إذا ذهب مع أهل السفينة وانقطع عن الذات وطالت غيبته عنها فإن الروح تخرج منها ولا ترجع إليها؛ لأنها إنما دخلت في أول الأمر عند النفخ كرهًا لا طوعًا، فمتى وجدت سبيلاً إلى الخروج وخرجت فإنها لا ترجع إليها أبدًا، فإن وعد الله تلك الذات بانصرام أجلها كان ذلك ابتداء مرضها وظهور عللها حتى يأتي أمر الله، وإن وعدها ﷻ بالبقاء مدة كانت الروح خارجة عنها بالعقل الذي هو سرها، وتقوم بتدبيرها مع انفصالها وانقطاعها عنها، وكان ذلك سبب ابتداء الحمق، ولو وجد هذا الرجل سببًا يرده إلى أمره الأول وإخراج أهل السفينة من عقله لبقي سالمًا من هاتين الآفتين.

قال: فكذلك أولياء الله تعالى تحصل لهم الغيبات، فإذا رأيتهم يستعملون شيئًا من المجون والضحك ونحوهما مما يرد عليهم عقولهم، ويحفظ عليهم بقاء ذواتهم، فلا تبادر

---

(١) في (ب): قلبه.

بالإنكار عليهم، فإنهم لا يستعملونه إلا لهذا الغرض الصحيح، فينتفع الخلق بهم مدة بقاء ذواتهم.

* **قلت**: وكم مرة ونحن مع الشيخ ﷺ يقول: اهدروا علينا، فإنه يطلع لكم بذلك خير كثير.

حتى قال لي مرة: ما مثلت صاحب المشاهدة إلا بنسر طائر في الهواء وعلا في طيرانه، والفرض أن الجو مملوء بالرياح، وفي يد رجل خيط رقيق موصول بذات النسر ومربوط فيها، فإذا رآه علا في الطيران وأرادت الرياح أن تجلبه بحيث لا يرجع أبدًا، جعل الرجل يقبض الخيط شيئًا فشيئًا وهو يخاف أن ينقطع، والنسر ينزل شيئًا فشيئًا إلى أن يرجع إلى يد صاحبه. فكذلك هذه الأمور الفانية التي تعتادها الذات الترابية هي التي تردها إلى عالمها الحسي.

* **قلت**: ولو أردنا أن نذكر شيئًا من تلك الأمور الواقعة للعارفين ﷺ لخرجنا عن المقام، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إن الغرض من الولي هو الدلالة على الله تعالى والجمع عليه، والتزهيد فيما سواه، فإذا جعل القاصد إليه يطلب منه هذا الأمر فإنه يربح معه، وإذا جعل يطلب منه قضاء الحوائج والأوطار، ولا يسأله عن ربه ولا كيف يعرفه، مقته الولي وأبغضه، وهو السالم إن نجا من مصيبة تنزل به؛ وذلك لأمور:

منها: إن محبته للولي ليست لوجه الله تعالى، وإنما هي على حرف، والمحبة على حرف، خسران مبين لا ينزل عليها نور الحق أبدًا.

ومنها: إن الولي يراه في تعلقه بغير الله تعالى في عين القطيعة وهو يريد أن ينقذه منها، والعبد يريد منه أن يزيده منها، فإن الولي يراه ترك التمرة وأخذ الجمرة، فالتمرة معرفة الله تعالى والعكوف بين يديه، والجمرة هي القطيعة عنه، والقبض في غيره، والميل إلى الدنيا والركون إلى زخارفها.

ومنها: إن الولي إذا ساعده في قضاء بعض الأوطار، وقابله ببعض الكشوفات ربما يظن العبد أن هذا هو الذي ينبغي أن تقع المعرفة عليه، وفيه يرغب الناس، وليس وراءه مطلب، وكل ذلك ضلال وموجب لمقت الولي له.

* **قلت**: ومن مقته له ومكره به أن يظهر على ذاته بعض المخالفات، أو يخبره بشيء لا يكون أنه يكون ليطرده بذلك عنه، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن سماع أهل العرفان ينبني على مشاهدتهم الحق ﷻ وتكون الأمور التي يسمعونها بمثابة السفينة التي يخرقون بها بحار المشاهدة، فيعتمدون على تلك الأمور، ويتوصلون بها إلى ما لا يكيف من المشاهدة، وذلك أن المشاهد ﷻ حي قديم لا مثل له ولا نظير، فليس لهذه الذات ما تعتمد عليه إلا ما يمكن في العبارة الحادثة مما اعتادته الذات ونشأت عليه.

قال: وإذا اتسعت مشاهدتهم وصاروا من الكبار قرب عشقهم من عشق أهل [الهزل][1] فيما يظهر للناس، وذلك للسرور والفرح والطرب الحاصل لهم عند مشاهدتهم فعل الحق ﷻ في مخلوقاته، فإذا شاهدوا ذلك حصل للروح ما لا يكيف من السرور، حتى لقد حصل لبعضهم ﷺ أنه رأى قطًّا يحك حنكه بيده، فجعل الولي يبكي ودموعه تسيل وهو يسجد بين يدي القط حتى اخضلت دموعه ما بين يديه.

فقلت له: ما سره؟

فقال ﷺ: إن الروح شاهدت الحق ﷻ يفعل تلك الحركة، فجعلت تسجد له وتتواضع وتبكي بين يديه ﷻ والذات تساعفها، فجعلت الذات تفعل مثل ما تفعله الروح وتحاكيها في ذلك. فالناس يظهر لهم أن سجوده للقط، والولي في وقت بكائه وسجوده لم يشاهد إلا الحق ﷻ فهو له يبكي وله يتضرع ويخضع.

قال ﷺ: وهذا يحصل لهم دائمًا، إلا أن الذات إذا غابت عن عقلها ساعفت الروح، وإذا لم تغب عن عقلها منعها العقل من ذلك حفظًا للظاهر، فترى الولي إذا رأى الغصن في الأشجار يتمايل يحصل له ما سبق، ولذا يقولون: إن ضربني سيدي بالأحجار فهي عندي أعز من الأثمار؛ لما يحصل له من النعيم والسرور عند مشاهدة الفعل منه ﷻ والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الله تعالى إذا فتح على عبد وكان على حالة ـ أي: حالة كانت بقي عليها ـ ولو كانت الحالة مذمومة طبعًا كجرارة وغيرها من الحرف المذمومة، فيبقى على حالته ولا ينتقل عنها؛ لأنه يرى الانتقال عنها تصنعًا للناس، والتصنع للناس أعظم

---

(١) في (ب): الهوى.

عند المفتوح عليه من شراب الخمر ونحوه من المعاصي.

قال ﷺ: وأعرف رجلاً بالرملة من أرض الشام فتح الله عليه وهو بحالة يتضاحك الناس عليه فيها، كحالة الرجل المشهور بمدينة فاس بـ«معيزو» فبقي على حالته بعد الفتح ولم ينتقل عنها.

* **قلت**: وكانت حالة «معيزو» المتقدم أن الصبيان وغيرهم من ضعفة العقول يتبعونه طول نهاره يضحكون عليه.

قال ﷺ: وأعرف رجلاً آخر فتح الله عليه وكان قبل ذلك طبالاً، فبقي على حالته بعد الفتح ولم ينتقل عنها.

* **قلت**: وقد سمعت منه ﷺ في هذا الباب أسرارًا كثيرة عظيمة لا ينبغي [إيداعها][1] في الكتب، والله أعلم.

---

(١) في (ب): تسطيرها.